

الفرقان

بين الحق والباطل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيّات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتدى ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله - وهو مما صنفه بقلعة دمشق أخيراً - :

فصل في الفرقان بين الحق والباطل وأن الله تعالى بين ذلك بكتابه ونبيه .

فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذي أنزله ، ونبيه الذي أرسله ، كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول ، كان أبعد عن الفرقان ، واشتبه عليه الحق بالباطل ، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبي الكاذب ، وأيات النبيين بشبهات الكاذبين ، حتى اشتبه عليهم الخالق بالخلق ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} بالهدي ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ، والهدي والضلال ، والرشاد والغي ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء ، وأعداء الله الأشقياء ، وبين ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيون قبله . قال الله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أَوْتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتِ بَعْيَانًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ

الْحَقُّ يَأْذِنُهُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ [البقرة : ٢١٣] وقال تعالى : ﴿نَّا لَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَرِيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلَيْهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل : ٦٣ - ٦٤] وقال سبحانه وتعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران : ١ - ٤] .

قال جماهير المفسرين : هو القرآن ، روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربع بن أنس ، قال : هو الفرقان ، فرق بين الحق والباطل ، قال : وروي عن عطاء ومجاهد ومقسّم وقتادة ومقاتلة ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله : ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال : هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ ، ففرق به بين الحق والباطل ، وبين فيه دينه ، وشرع فيه شرائعه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحد حدوده ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته .

وعن عباد بن منصور : سأله الحسن عن قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال : هو كتاب بحق .

والفرقان مصدر فرق فرقانًا ، مثل الرجحان والكفران والخسران ، وكذلك القرآن هو في الأصل مصدر قرأ قرآنًا ، ومنه قوله : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَةً وَقُرْآنًا * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعْنَاهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة : ١٧ - ١٩] .

ويسمى الكلام المقوء نفسه قرآنًا ، وهو كثير كما في قوله : ﴿فَإِذَا قَرَأَتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعْذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل : ٩٨] .

كما أن الكلام هو اسم مصدر كلام تكليمًا ، وتكلم تكلمًا ، ويراد به الكلام نفسه ، وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه ، وحركة هي مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفًا هو نفس التكلم ، فالكلام والقول

ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسيماً له إذا أريد ما يتكلم به ، وهو يتناول هذوهذا ، وهذا مبسط في غير هذا الموضوع .

والمقصود هنا أن لفظ الفرقان إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزَل في الكتاب، فإن في الكتاب الفصل ؛ وإنزال الفرق هو إنزال الفارق ، وإن أريد بالفرقان ما يفرق ، فهو الفارق أيضاً، فهما في المعنى سواء ، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر، فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل ، فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن، كما جعل فيها الإيمان والعدل ، وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان ، والميزان قد فسر بالعدل ، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل ، وهو كالفرقان، يفسر بالفرق ويفسر بما يحصل به الفرق ، وهما متلازمان .

فإذا أريد الفرق نفسه ، فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه ، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق ، ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى . سمي كتاباً باعتبار انه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب ، وسمى فرقاناً باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمي هدى باعتبار أنه يهدى إلى الحق ، وشفاءً باعتبار أنه يشفى القلوب من مرض الشبهات والشهوات ، ونحو ذلك من أسمائه .

وكذلك أسماء الرسول ﷺ كالْمُفْتَنِي^(*) والماحي والحاشر ، وكذلك أسماء الله الحسنی كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ، ونحو ذلك . والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات ، وإن كان المسمى واحداً كقوله: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى * وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣] قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ﴾ [الجديد: ٣] ونحو ذلك .
وهنا ذكر أنه نزل الكتاب فإنه نزله متفرقاً ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل ، وذكر

(*) في المطبوع: المقني ، وهو خطأ ، والتصحيح من «صحيح مسلم» رقم (٢٣٥٥) ، وكتب الحديث .

ومعنى المقني : العاقب ، وهو المتبع للأنبياء .

أنه أنزل الفرقان وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان في القلوب ، وأنزل الميزان ، والإيمان والميزان مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصل به ، الإيمان والفرقان ، ونظير هذا قوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ [الأنبياء : ٤٨] قيل : الفرقان هو التوراة ، وقيل : هو الحكم بنصره على فرعون ، كما في قوله : ﴿إِنْ كُتْمُتْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وكذلك قوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة : ١٥] قيل : النور هو محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو الإسلام ، وقوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء : ١٧٤] قيل : البرهان هو محمد عليه، وقيل : هو الحجة والدليل ، وقيل : القرآن والحجۃ . والدليل يتناول الآيات التي بعث بها محمد عليه لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم ، وهنا قال : ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ جاء بلفظ الإنزال ، فلهذا شاع بينهم أن القرآن والفرقان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل، بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ، ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان الى هؤلاء ، وعقوبة هؤلاء .

وهذا كقوله في القرآن في قوله : ﴿إِنْ كُتْمُتْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْسِيَةِ الْجَمِيعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الفرقان : ٤١] قال الوالبي^(١) عن ابن عباس : يوم الفرقان : يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل ، قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد ومقسم وعبد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وبذلك فسر أكثرهم ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ كما في قوله : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق : ٢] أي من كل ما ضاق على الناس ، قال الوالبي : عن ابن عباس في قوله : ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي مخرجاً ،

(١) الوالبي - بكسر اللام وبالباء المودحة - منسوب الى والية بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة .

وهو علي بن أبي طلحة سالم بن مخارق الوالبي ، مولى العباس بن عبد المطلب توفي سنة ١٢٣ . صفت تقدير

القرآن .

قال ابن أبي حاتم . وروي عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقادة والسدى ومقاتل ابن حيان كذلك ، غير أن مجاهداً قال : مخرجاً في الدنيا والآخرة ، وروي عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً : قال وفي آخر قول ابن عباس والسدى : نجاة .

وعن عروة بن الزبير **﴿يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾** أي فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حكمكم ، ويطفيء به باطل من خالفكم . وذكر البغوي عن مقاتل بن حيان قال : مخرجاً في الدنيا من الشبهات . لكن قد يكون هذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيان كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن قتيبة أنهم قالوا : هو المخرج ، ثم قال : والمعنى : يجعل لكم مخرجاً في الدنيا من الضلال ، وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله : **﴿وَمَنْ يَقُولَ اللَّهُ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾** والفرقان المذكور في قوله : **﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَان﴾** وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال : هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل .

ونوعاً الفرقان : فرقان الهدى والبيان ، وهو النصر ، والنجاة : هو نوعاً الظهور في قوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾** [الصف : ٩] يظهره بالبيان والحججة والبرهان ، ويظهره باليد والعز والسان ، وكذلك السلطان في قوله : **﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنِكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾** [الاسراء : ٨] فهذا النوع وهو الحججة والعلم كما في قوله : **﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾** [انثرون : ٣٥] وقوله : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾** [غافر : ٥٦] وقوله : **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾** [النجم : ٢٣] وقد فسر السلطان بسلطان القدرة واليد ، وفسر بالحججة والبيان .

فمن الفرقان ما نعته الله به في قوله : **﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَحِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾** [الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧] ، ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا، ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبث ، أحل هذا، وحرم هذا .

ومن الفرقان أنه فرق بين أهل الحق: المهددين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات ، وبين أهل الباطل : الكفار والضالين المفسدين أهل السيئات . قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَا هُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءً مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] [وقال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَقِينَ كَالْفَجَارِ﴾ [ص : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [ن : ٣٥ - ٣٦] . وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿أَمْنٌ هُوَ قَاتِنُ آنَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَجُورَ حَمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَاب﴾ [الزمر : ٩] . وقال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظَّلُلُ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِنْ فِي الْقُبُوْرِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ يَبْشِرُ أَنْذِيرًا﴾ [فاطر : ١٩ - ٢٤] [وقال تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنْا فَأَحْيَيْنَا وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] . وقال تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِونَ﴾ [السجدة : ١٨] ، فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول، والمعصية لله والرسول ، كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه .

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق في شيء فيجعل المخلوق نداءً للخالق . قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحْبِبُهُمْ كَحْبَ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] [وقال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] . وقال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدًا﴾ [الإخلاص : ٤] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ . وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق ، بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه ، كما قالوا لهم في النار يصطرون فيها ﴿تَاهَ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ٩٧ - ٩٨] . وقال تعالى ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَا إِ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿النَّحْلُ : ٢١ - ٢٢﴾

فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحي الذي لا يموت ، ومن سواه لا يخلق شيئاً كما قال : **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدُوهُ مِنْهُ، ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج : ٧٣ - ٧٤]**

وهذا مثل ضربه الله ، فإن الذباب من أصغر الموجودات ، وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم ، فهم عن خلق غيره وعن مغالبته أعجز وأعجز .

والمثل هو الأصل والنظير المشبه به كما قال : **﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف : ٥٧]** ، أي لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم ، وقالوا : إذا كان قد عبد وهو لا يعبد فكذلك آلهتنا ، فضربوه مثلاً لآلهتهم ، وجعلوا يصدون أي يضجون ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر ، كما بينه في قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقْتُ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَىٰ أُوْتَيْكَ عَنْهَا مُبَعْدُونَ﴾ [الأنباء : ١٠١]** .

وقال في فرعون : **﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف : ٥٦]** أي مثلاً يعتبر به ويقاس عليه غيره ، فمن عمل بمثل عمله جوزي بجزاءه ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله .

وقال تعالى : **﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النور : ٣٤]** ، وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التي يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة ، كما قال : **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِزْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١]** ، فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم ، وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة ، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم ، وعلم أن الله يشققه في

الدنيا والآخرة ، كما قال في حق هؤلاء : ﴿أَكَفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أُمُّ لَكُمْ بِرَاءَةٌ فِي الرُّبُرِ﴾ [القمر : ٤٣] . وقد قال ﴿فَدُخَلْتُ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَّ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

وقال في حق المؤمنين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور : ٥٥] . وقال ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَطَرَنَ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمَّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنباء : ٨٧] .

وقال في قصة أیوب : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنباء : ٨٤] ﴿رَحْمَةً مِّنَا وَذِكْرَى لِأُولَئِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٤٣] وقال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمَا أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعم : ٩٠] . وقال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُزِّلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَّ نَصْرَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة : ٢١٤] . وقال : ﴿وَكُلَّا نَقْصًّا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثْبِتُ بِهِ فُوَادُكَ﴾ [هود : ١٢٠] . فلفظ المثل يراد به النظير الذي يقاس عليه ويعتببه، ويراد به مجموع القياس ، قال سبحانه : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس : ٧٨] . أي لا أحد يحييها وهي رميم.

فمثيل الحال بالمخلوق في هذا النفي . فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحياءها سواء نظمه قياس تمثيل أو قياس شمول ، كما قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن معنى القياسيين قياس بالشمول ، وقياس بالتمثيل ، وأن المثل المضروب المذكور في القرآن ، فإذا قلت : النبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله عليه السلام : « كل مسكر حرام »^(١) فهو كقوله عليه السلام قياساً

(١) قطعة من حديث رواه البخاري وسلم والنamenti عن عائشة رضي الله عنها . وفي الباب عن عدد من الصحابة ، انظر « جامع الأصول » الحديث رقم (١٦٨٢) (٣١١٣) و(٣١١٦) و(٣١٢٢) و(٣١٢٦) و(٣١٩٤) و(٣١٩٦) (٣١٩٧) و(٣٢٠٧) و(٦١٧٩) .

على الخمر ، لأن الخمر إنما حرمت لأجل الإسکار ، وهو موجود في النبيذ .

فقوله : ضرب مثل فاستمعوا له ، جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلاً ونظيراً يعتبر به ، فإذا كان أدون خلق الله لا يقدرون على خلقه ولا منازعه، فلا يقدرون على خلق ما سواه ، فيعلم بها من عظمة الخالق ، وأن كل ما يبعدون من دون الله في السماء والأرض لا يقدرون على ما هو أصغر مخلوقاته ، وقد قيل : إنهم جعلوا آلهتهم مثلاً لله فاستمعوا لذكرها ، وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل .

ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ، ويجعل له نداً ومثلاً ، كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّى تُصْرِفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ يَتَّبِعُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدهُ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَتَّبِعُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدهُ فَإِنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا أَنْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣٦ - ٣١] .

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ زَبْ العَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يُجِيبُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٧ - ٣٩] . وهؤلاء مثّلوا المخلوق بالخالق ، وهذا من تكذيبهم أياه ، ولم يكن المشركون يسوقون بين آلهتهم وبين الله في كل شيء ، بل كانوا يؤمّنون بأن الله هو الخالق المالك لهم ، وهم مخلوقون مملوكون له ، ولكن كانوا يسوقون بيده وبينها في المحبة والتعظيم والدعاء والعبادة والنذر لها ، ونحو ذلك مما يخص به الرب ، فمن عدل بالله

غيره في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك ، بخلاف من لا يعدل به ، ولكن بذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفاً من عقوبة الذنب ، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك .

فصل

وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة ،凡ه يجمع ويُسوّي بين الأمور المتماثلة ، فيحكم في الشيء خلقاً وأمراً بحكم مثله ، لا يفرق بين متماثلين ولا يُسوّي بين شيئاً غير متماثلين ، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يُسوّي بينهما . ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض ، لا يراد به مجرد عدم التماثل ، كما هو اصطلاح كثير من النّاظار ، ومنه قوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٩ - ٨] . قوله ﴿ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وقد بين سبحانه وتعالى أن السُّنَّة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع ، والسُّنَّة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ، ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله ، فيعلم أن حكمه مثل حكمه ، كما قال ابن عباس : هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان . فإذا قال : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَئِكَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] . أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم ، ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَّةٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرُجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَيَلْبُسُونَ حِلَالَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسْتَيَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦ - ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَتَّهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغَرِّيَنَّكُمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكُمْ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْمَانًا ثُقِفُوا أَخْدُوا وَقُتُلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢ - ٦٣]

وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب وظهور الإسلام وذل المنافقين ، فلم يستطعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونـه قبل ذلك قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها ، فأخفوا النفاق وكتموه ، فلهذا لم يقتلهم النبي ﷺ .

وبهذا يجib من لم يقتل الزنادقة ويقول إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم ، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية بقوله : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْمَانًا ثُقِفُوا أَخْدُوا وَقُتُلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢ - ٦٣]

قال قتادة : ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرونـ ما في أنفسهم من النفاق فأوعدهم الله بهذه الآية ، فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا وكتموه ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ ﴾ يقول هكذا سُنَّةُ اللَّهِ فيهم إذا أظهروا النفاق ، قال مقاتل بن حيان : قوله ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ ﴾ يعني كما قتل أهل بدر وأسرـوا ، فذلك قوله : ﴿ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ ﴾ .

قال السدي : كان النفاق على ثلاثة أوجه ، نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفیل ، ومالك بن داعس ، فكان هؤلاء وجوهـاً من وجوهـ الأنصار ، فكانوا يستحبـونـ أن يأتـوا الزنا يصـونـونـ بذلك أنفسـهم ، ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال : الزنا ، إن وجدـوهـ عمـلـوا بهـ وإنـ لمـ يـجـدوـهـ لمـ يـتـبعـوهـ ، ونـفـاقـ يـكـابرـونـ النساءـ مـكـابرـةـ ، وـهـمـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ يـجـلسـونـ عـلـىـ الطـرـيقـ ، ثـمـ قـالـ ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ ثـمـ فـصـلتـ الآـيـةـ ﴿ أَيْمَانًا ثُقِفُوا ﴾ يـعـملـونـ هـذـاـ العـمـلـ مـكـابرـةـ النـسـاءـ .

قال السدي : هذا حكم في القرآن ليس يعملـ بهـ ، ولوـ أنـ رـجـلاـ أوـ أـكـثـرـ منـ ذلكـ اـقـتصـواـ أـثـرـ اـمـرـأـ فـغـلـبـوـهـاـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ فـفـجـرـوـهـاـ بـهـاـ كـانـ الحـكـمـ فـيـهـمـ غـيرـ الجـلدـ

والرجم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم .

قال السدي قوله ﴿سُنَّة﴾ كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم ، قال : فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت : هذا على وجهين :

أحدهما : أن يقتل دفعاً لصوله عنها ، مثل أن يقهرها ، فهذا دخل في قوله : « من قتل دون حرمه فهو شهيد »^(١) وهذه لها أن تدفعه بالقتل ، لكن إذا طاوعت فيه نزاع وتفصيل ، وفيه قضيتان عن عمر وعلي معرفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرهاً ولم تجد من يعينها عليه فهو لاء نوعان :

أحدهما أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال ، وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا ، قال السدي قد قاله غيره ، وذكر أبواللويبي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق أن يكونوا محاربين .

والثاني أن لا يكونوا ذوي شوكة ، بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالاً حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها ، فهذا المحارب غيلة كما قال السدي يقتل أيضاً ، وإن كانوا جماعة في مصر ، فهم كالمحاربين في مصر ، وهذه المسائل لها موضع آخر . والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تحول ، وستته عادته التي يسوى فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي ، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ، ولهذا قال : « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ » [القمر: ٤٣] وقال : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاجُهُمْ » [الصفات: ٢٢] أي أشباههم ونظراهم . وقال : « وَإِذَا النُّفُوسُ رُوَجْتُ » [التوكير: ٧] قرن النظير بنظيره . وقال تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثُلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ » [البقرة: ٢١٤] وقال : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذَا كَالَوْا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءٌ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبِدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ »

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٧٢) في السنّة : باب قتال اللصوص ، والترمذى رقم (١٤٢١) في الديات : باب من قاتل دون ماله ، والنمسائي ١١٦ في المحاربة : باب من قاتل دون أهله ، وابن ماجة رقم رقم (٢٥٨٠) في الحدود ، بلفظ « من قاتل دون أهله فهو شهيد » من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

والبعضاء أبداً》 [المتحنة : ٤]

وقال : « والسايقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضا عنهم وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهر خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » [التوبه : ١٠٠].

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة، وقد قال تعالى : « والذين آمنوا من بعد هاجروا وجاحدوا معكم فأولئك منكم » [الأنفال : ٧٥] وقال تعالى : « والذين جاؤ من بعدهم يقولون ربنا أغرانا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » [الحشر : ١٠] وقال تعالى : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .
[ال الجمعة : ٣]

فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم ، وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه خير أمة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد، كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ^(١) ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرین وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله كالتفسير وأصول الدين وفروعه ، والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك ، فانهم أفضل من بعدهم ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم ، فيمكن طلب الحق في بعض أقوالهم ، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف

(١) رواه البخاري / ١٩٠ / ٥ في الشهادات : باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، وفي الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ومسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، والترمذني رقم (٢٢٢٢) في الفتنة : باب ما جاء في القرن الثالث ، ورقم (٢٣٠٣) في الشهادات : باب خير القرون ، وأبو داود رقم (٤٦٥٧) في السنة : باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، والنسائي ١٧ / ١٧ و ٤٤٠ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

دلالة الكتاب والسنّة على خلافه قال تعالى : « أطِيعُوا الله وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » [النساء : ٥٩] .

وأما المتأخرن الذين لم يتحروا متابعيهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم ، بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ويعملون به ولا يعرفون طريق الصحابة والتبعين في ذلك من أهل الكلام والرأي والزهد والتتصوف ، فهو لاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو عما يظنونه من الإجماع ، وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف ألبته ، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من يناظرهم من الطوائف المتأخرة طائفة أو طائفتين أو ثلاثة ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف ، والأول كثير في مسائل أصول الدين وفروعه كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، يحلون اجماعاً وزناعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة ، بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم كما تجد ذلك في مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ، مثل مسألة القرآن والرؤيا والقدر وغير ذلك .

وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الإجماع ، فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتذرعون القطع بإجماعهم في مسائل النزاع بخلاف السلف ، فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً ، وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهداد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج^(١) والرافضة^(٢) والقدرية^(٣) والمرجحة^(٤) ومن قد اشتهرت لهم

(١) الخوارج : هم الذين نزعوا أيديهم عن طاعة ذي السلطان من أئمة المسلمين ، وأصلهم الخارجون على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأكثرهم من بنى تميم .

(٢) سبب تسميتهم بهذا الاسم أنهم عندما جاؤوا إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وطلبوه منه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهم حتى يكونوا معه ، فقال : بل أتولاهم وأثيراً من تبرأ منهم ، فقالوا : إذاً نرفضك ، فرفضوه ، وارفضوا عنه ، فسموا : الرافضة .

(٣) القدرية : لقبوا بذلك لاستنادهم لأفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم للقدر فيها ، وهذا يقتضي إثبات خالق لأفعال العباد غير الله .

(٤) المرجحة وهم أصناف ، صنف منهم يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة واجماع الصحابة، بخلاف ما يعرف من نزاع السلف ، فإنه لا يمكن أن يقال إنه خلاف الاجماع وإنما يرد بالنص .

وإذا قيل : قد أجمع التابعون على أحد قولיהם فارتفاع التزاع، فمثل هذا مبني على مقدمتين ، احدهما : العلم بأنه لم يبق في الأمة من يقول بقول الآخر، وهذا متذر ، الثاني ان مثل هذا هل يرفع التزاع ^(١) مشهور فنزاع السلف يمكن القول به اذا كان معه حجة ^(١) على خلافه ونزاع المتأخرین لا يمكن هذا ^(١) ، لأن كثيراً منه قد تقدم الاجماع على خلافه ، كما دلت النصوص على خلافه ومخالفة اجماع السلف خطأ قطعاً .

وأيضاً فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف ، فلا بد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه ، وقد بسطنا في غير هذا الموضوع أن الصواب في أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرین ، وأن المتأخرین أكثر خطأ وأفاحش ، وهذا في جميع علوم الدين ، ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضوع عن استقصائها ، والله سبحانه أعلم .

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتاج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ لم يحتاج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم .

ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع ، نوع يعرف حده بالشرع كالصلة والزكاة ؛ ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء : ١٩] .

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتمادهم بالكتاب والسنّة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن

(١) فراغ بالأصل .

يهدي لـلتي هي أقوم ، فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حجل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ولا يحرف به لسانه ولا يخلق عن كثرة الترداد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ، لا تنقضي عجائبه ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم^(١) .

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بنوقة ووجود ومكاشفة ، ولا قال فقط قد تعارض في هذا العقل والنقل ، فضلاً عن أن يقول فيجب تقديم العقل والنقل ، يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين ، إما أن يفوض وإما أن يؤول . ولا فيهم من يقول إن له ذوقاً أو وجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، فضلاً عن أن يدعى أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ، أو يقول الولي أفضل من النبي ونحو ذلك من مقالات أهل الالحاد ، فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد في المسلمين ، وإنما يعرف مثل هذه إما من ملاحظة اليهود والنصارى ، فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي ، كما قد يقوله في الحواريين ، فإنهم عندهم رسول ، وهم يقولون أفضل من داود وسليمان ، بل ومن إبراهيم وموسى ، وإن سموهم أنبياء إلى أمثال هذه الأمور .

(١) هذا اقتباس من حديث رواه الترمذى من حديث الحارث بن عبد الله الهمданى الأعور ، ونصه قال : « مررت في المسجد ، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث ، فدخلت على عليٍّ فأخبرته ، فقال : أورقد فعلوها ؟ قلت : نعم ، قال : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينكم ... » رواه الترمذى رقم (٤٣٥/٢) في ثواب القرآن : باب في فضل القرآن، ورواه أيضاً الدارمى رقم (٤٣٥) من حديث حمزة الزيات عن أبي المختار الطائى عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث ، وفي إسناده مجھول ، والحارث الأعور ضعيف ، وقال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجھول ، وفي الحارث مقال ، ورواه أحمد في « المستد » ٩١/١ من طريق محمد بن اسحاق ، قال : وذكر محمد بن كعب القرظى عن الحارث بن عبد الله ... الحديث .

ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها ، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها ، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخاً لها ، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها ، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية بل قد ^(١) وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الابهام والفهم نسخاً ^(٢) هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم ، وأصل

ذلك ^(١) الشيطان ثم يحكم الله آياته ، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه ، سمي هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخاً كما سموا قوله : ﴿فَأَنْقَعُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] ناسخاً لقوله : ﴿أَتَقُوَا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران : ١٠٢] قوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ناسخاً لقوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُبْخُرُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة : ٢٨٤] ، وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا القرآن ، لا رأي ومعقول وقياس ولا ذوق ووجد وإلهام ومكافحة .

وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن ، لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه ، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب إذ كان المؤمن هو البر التقي ، قالوا : فمن لم يكن برأ تقياً فهو كافر وهو مخلد في النار ، ثم قالوا : وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله .

فكانت بدعتهم لها مقدمتان ، الواحدة أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر . والثانية أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك ، ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام ، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وقد ثبت عن النبي ﷺ الأحاديث الصحيحة ^(٢) في ذمهم والأمر بقتالهم .

(١) فراغ بالأصل

(٢) انظر «جامع الأصول» الأحاديث رقم (٧٥٤٩) و(٧٥٥٠) و(٧٥٥١) و(٧٥٥٢) حتى الرقم (٧٥٦٠)

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها ، وهم مع هذا الذي إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن يكون بدعته ومعارضة القرآن والأعراض عنه ، وهو مع ذلك يكُفر المسلمين كالجهمية ، ثم الشيعة لما حدثوا لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده الدين ، بل كان غرضه فاسداً . وقد قيل : إنه كان منافقاً زنديقاً ، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله ﷺ وتکذیب الأحادیث الصحیحة ، ولهذا لا يوجد في فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم ، بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب .

والشيعة لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثره الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح ، فلا يروي البخاري ومسلم أحاديث علي إلا عن أهل بيته ، كأولاده مثل الحسن والحسين ، ومثل محمد بن الحنفية وكاتبه عبيد الله ابن أبي رافع ، أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم ، مثل عبيدة السلماني والحارث التيمي وقيس ابن عباد وأمثالهم ، إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن علي ، فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر ، وصدرأً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته ، متتفقين لا تنازع بينهم .

ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان ، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين . خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له : حررراء ، فكف عنهم أمير المؤمنين ، وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حكم من الفيء ، ولا نمنعكم المساجد ، إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن حباب وأغاروا على سرح المسلمين ، فعلم عليٌّ رضي الله عنه أنهم الطائفة التي ذكرهم

رسول الله ﷺ حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يخرج فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » . وفي رواية « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ^(١) » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ ، وقال : هم هؤلاء القوم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس ، فقاتلهم ووجد العلامة بعد أن باد لا يوجد ، فسجد لله شكرًا .

وحدث في أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلي وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف .

طاففة تقول : إنه إله ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحراقهم بالنار ، وخد لهم أحاديد عند باب مسجدبني كندة ، وقيل إنه أنسد :

لما رأيتُ الأمرَ أمراً منكراً أَجَّبْتُ ناري ودعوت قنبرا
وقد روى البخاري في « صحيحه » ^(٢) عن ابن عباس ، قال : أتي علي بن زنادقة
حرقهم بالنار ، ولو كنت أنا لم أحرقهم لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله ،
ولضررت أعناقهم ، لقوله : « من بدل دينه فاقتلوه » .

وهذا الذي قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء ، وقد روی انه أجلهم ثلاثة
والثانية السابة ، وكان قد بلغه عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه ،

(١) رواه البخاري ٨٦/٩ في فضائل القرآن : باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به ، وفي الأنبياء : باب علامات النبوة في الإسلام ، وفي الأدب : باب ما جاء في قول الرجل : وبذلك ، وفي استتابة المرتدين : باب قتال الخوارج وباب من ترك قتال الخوارج للخلاف وأن لا ينفر الناس عنه ، ومسلم رقم (١٠٦٤) في الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، و« الموطأ » ٢٠٤/١ و٢٠٥ في القرآن : باب ما جاء في القرآن ، وأبو داود رقم (٤٧٦٤) في السنة : باب في قتال الخوارج ، والنسائي ٨٧/٥ في الزكاة : باب في المؤلفة قلوبهم ، وفي تحريم الدم : باب من شهر سيفه ثم وضعه في الناس ، وأحمد في « المسند » ٣٣/٣ و٣٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) في الحدود : باب في المرتد ، والنسائي ١٠٤/٧ في تحريم الدم : باب الحكم في المرتد ، وابن ماجة رقم ٢٥٣٥) في الحدود : باب المرتد عن دينه ، واحمد في « المسند » ٢١٧/١ و٢٨٢ و٣٢٢ .

قيل : إنه طلبه ليقتله ، فهرب منه .

والثالثة المفضلة الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . وروى ذلك البخاري في « صحيحه »^(١) عن محمد بن الحنفية أنه سأله أباه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر ، قال : ثم من ؟ قال : عمر . وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر ، وإنما كان التزاع في علي وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله : إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر ، فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة ، فقال : كل الشيعة كانوا على هذا ، وهو الذي قال هذا على أعاد منبره ، أفتکذبه فيما قال . ولهذا قال سفيان الثوري : من فضل علياً على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل ، وهو كذلك رواه أبو داود في « سننه »^(٢) ، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي ، فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة المسلمين ولا امام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج ، تميزوا بالأمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تعطن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعلياً ومن تولاهم ، والرافضة يلغون أبي بكر وعمر وعثمان ومن تولاهم ، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء وأخذ الاموال والخروج بالسيف . فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم ، والأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤبة وعدائب القبر وفتنته ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

وقد رويت أحاديث في ذم القدرية والمرجئة روى بعضها أهل السنن كأبي داود

(١) ٢٦/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخدنا خليلاً ، وأبو داود رقم (٤٦٢٩) في السنة : باب في التفضيل ، وابن ماجه (١٠٦) في المقدمة : باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ .

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٦٣٠) واستناده صحيح .

وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ، ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

وأما لفظ الرافضة فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمر ، فتلولاهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم ، فقال : رفضتمني رفضتمني ، فسموا الرافضة ، فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي زيدية ، والزيدية يتولونه وينسبون إليه ، ومن حينئذ اتّمّت الشيعة إلى زيدية والرافضة امامية .

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر ، وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد ، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق للصحابة أنكروا إنكاراً عظيماً وتبرؤا منهم ، حتى قال^(١) عبد الله بن عمر: أخبر أولئك أني بريء منهم وأنهم مني براء ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو ان لأحدthem مثل أحد ذهباً فإنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، وذكر عن أبيه

(١) ذكر في صحيح مسلم رقم (٨) في الإيمان: باب وصف جبريل للنبي ﷺ الإسلام والإيمان عن يحيى بن عمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة مُعْنِدُ الْجَهَنَّمِ، فانطلقت أنا وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَمِيْرِيُّ حاجين أو معتبرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسأله عما يقول هؤلاً في القدر، فوقق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتفتُه أنا وأصحابي ، أحذنا عن يمينه والآخر عن شماليه ، فظلت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إلَيْهِ ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرؤون القرآن ويتفرون العلم؛ وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا يقدر ، وأن الأمر أَنْفَقَ قال: فإذا لقيت أولئك فاتبر لهم أني بريء منهم وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر؛ لو أن لأحد them مثل أحد ذهباً فإنفاقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ قال: طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه من أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأنسد ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ! أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتصدق الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إلى سبلاً ، قال: صدقت ، قال: فعجبنا له يسأله وصدقه ؛ قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال: صدقت إلى آخر الحديث.

حديث جبريل، وهذا أول حديث في « صحيح مسلم » وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة أيضاً مختصراً^(١).

ثم كثر الخوض في القدر وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام، وبعضه في المدينة ، فصار مقتضدهم وجمهورهم يقررون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس في الإرادة وخلق أفعال العباد ، فصاروا في ذلك حزبين : النفاة يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة ، وهو لم يرد إلا ما أمر به ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد ، وقابلهم الخائضون في القدر من المجبرة مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا : ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم ارادة ، وقالوا : العبد لا فعل له البتة ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط ، وكان جهنم مع ذلك ينفي الأسماء والصفات يذكر عنه أنه قال: لا يسمى الله شيئاً ولا غير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر .

وكانت الخوارج قد تكلموا في تكفير أهل الذنب من أهل القبلة ، وقالوا إنهم كفار مخلدون في النار ، فخاص الناس في ذلك ، وخاص في ذلك القدريه بعد موت الحسن البصري ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه : لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المترفين ، وهم مخلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الاسلام والإيمان شيء ، ولكن لم يسموهم كفاراً ، واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري مثل قتادة وأبيوب السختياني وأمثالهما ، فسموا معتزلة^(٢) من ذلك الوقت بعد موت الحسن ، وقيل : إن قتادة كان يقول : أولئك المعتزلة .

وتنازع الناس في الأسماء والأحكام ، أي في أسماء الدين ، مثل مسلم ومؤمن

(١) رواه مسلم رقم (٨) في الإيمان : باب وصف جبريل للنبي ﷺ الإسلام والإيمان ، والترمذى رقم (٢٦١٣) فيه : باب رقم () وأبو داود رقم (٣٦٩٥) في السنة : باب في القدر ، والنسائي ٩٧/٨ في الإيمان : باب نعم الاسلام من حديث يحيى بن يعمر ، ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري ١٠٦/١ ١١٥ في الإيمان : باب سؤال جبريل النبي ﷺ ، ومسلم رقم (٩) و(١٠) فيه : باب الاسلام والإيمان ، والإحسان ،

(٢) المعتزلة : هم الذين نشروا من فريق في جيش علي رضي الله عنه اعتزل السياسة ، وقيل : سموا بذلك لأنهم اعتزلوا عن مجلس الحسن البصري ، وعلى رأسهم واصل بن عطاء .

وكافر وفاسق ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة ، فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم في الآخرة دون الدنيا فلم يستحروا من دمائهم وأموالهم ما استحلته الخوارج ، وفي الأسماء أحذثوا المنزلة بين المترزلين ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا فيها ، وسائل أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

وحدثت المرجئة ، وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله ، فصاروا نقىض الخوارج والمعتزلة ، فقالوا : إن الأعمال ليست من الإيمان ، وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيراً من التزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم ، إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث^(١) الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب .

فكان في الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء ونحو ذلك ، وعماته نزاع لفظي ، فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال لقول النبي ﷺ « الإيمان بضع وستون شعبة ، أو بضع وسبعين شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدنها إماتة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »^(٢) . وإذا عطف عليه العمل قوله : « إن

(١) حديث الشفاعة رواه البخاري ٣٩٧ - ٣٩٥ / ١٣ في التوحيد : باب كلام رب تعالى يوم القيمة مع الآباء وغيرهم ٣٣٢ / ١٣ باب قوله تعالى : « لما خلقت بيدي » و ٣٩٨ / ١٣ : باب قوله تعالى : « وكلم موسى تكليماً » و ٨ / ١٢٢ في تفسير سورة البقرة : باب « وعلم آدم الأسماء كلها » ومسلم رقم ١٩٣ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، والبخاري ٢٦٤ / ٦ و ٢٦٥ ، ومسلم رقم ١٩٤ في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والبخاري ١١ / ٣٦٧ و ٣٧١ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . انظر « جامع الأصول » رقم ٨٠٩ (٨٠١٧) و ٨٠١٨ (٨٠١٦) و ٨٠١٩ (٨٠١٥) و ٨٠٢٠ (٨٠١٤) .

(٢) رواه البخاري ٤٨ / ٤٩ في الإيمان : باب أمور الإيمان بلفظ « الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان » ، ومسلم رقم ٣٥ في الإيمان : باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدنها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ، وأبو داود رقم ٤٦٧٦ في السنة : باب في رد الإرجاء ، والتزمي رقم ٢٦١٧ في الإيمان : باب استكمال الإيمان ، والنمساني ١١٠ / ٨ في الإيمان : باب ذكر شعب الإيمان ، وأحمد في « المستد » ٤٤٥ / ٢ وابن ماجه رقم ٥٧ في المقدمة ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» [البقرة : ٢٧٧] فقد ذكر مقيداً بالعطف ، فهنا قد يقال : الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام ، وقد يقال : لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف ، كما في اسم الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر ، فهما صفتان كما في آية الصدقات ، كقوله : «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ» [التوبه : ٦٠] وكما في آية الكفاراة كقوله «فَكُفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ» [المائدة : ٨٩] وفي قوله : «وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» [البقرة : ٢٧١] فالفقير والمسكين شيء واحد .

وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف ، وفي الإثم والعدوان والمنكر، تختلف دلالتها في الأفراد والاقتران لمن تدبر القرآن ، وقد بسط هذا بسطاً كبيراً في الكلام على الإيمان وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، كما في «المسند»^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال : «الإسلام علانية والإيمان في القلب» وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح : «ألا إن في الجسد مضبة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب»^(٣) .

فإذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب ، فيجب أن يصلح سائر الجسد ، فلذلك هو ثمرة ما في القلب ، فلهذا قال بعضهم : الأعمال ثمرة الإيمان ، وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع .

وفي الجملة الذين رموا بالارجاء من الأكابر مثل طلق بن حبيب وإبراهيم التيمي ونحوهما كان إرجاؤهم من هذا النوع . وكانوا أيضاً لا يستثنون في الإيمان ، وكانوا يقولون : الإيمان هو الإيمان الموجود فيما ونحن نقطع بأننا مصدقون ، ويررون الاستثناء شكراً . وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روي في حديث أنه رجع

(٢) ١٣٥/٣ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه انظر واسناده ضعيف .

(٣) رواه البخاري ١١٧ في الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه ، وفي البيوع : باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات ، ومسلم رقم (١٥٩٩) في المساقاة : بابأخذ الحلال وترك الشبهات من حديث التعمان بن شير رضي الله عنه .

عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال ، لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث .

وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال : قول أنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كأن مبتدعًا ، وقول أن الاستثناء محظوظ فإنه يقتضي الشك في الإيمان ، والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار ، وتركه باعتبار ، فإذا كان مقصوده أني لا أعلم أني قائم في كل ما أوجب الله علي وأنه قبل أعمالي ليس مقصوده الشك فيما في قلبه ، فهذا استثناؤه حسن . وقصده أن لا يزكي نفسه ، وأن لا يقطع بأنه عمل عملاً كما أمر ، فقبل منه والذنوب كثيرة والنفاق مخوف على عامة الناس .

قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، لا يقول واحد منهم إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ، والبخاري في أول « صحيحه » بوب أبواباً في الإيمان والرد على المرجئة ، وقد ذكر بعض من ضعف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : كرهوا أن يقول الرجل إيماني كإيمان جبريل وميكائيل ، قال محمد : لأنهم أفضل يقيناً ، أو إيماني كإيمان جبريل أو إيماني كإيمان أبي بكر أو كإيمان هذا . ولكن يقول : آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ، ويذمون المرجئة ، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا اجتناب المحaram ، بل يكتفون بالإيمان ، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط ، لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده كما قالوا في قوله : أنت طالق إن شاء الله ، فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط .

قالوا : وشرط المشيئة الذي يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيمة ، فإذا علق العزم بالفعل على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد فلا معنى للاستثناء ، ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام فلا يبقى الإقرار بالإيمان

والعقد مؤمناً ، وربما يتوجه هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق وذلك يزيشه .

قلت : فتعليهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة ، كالذى يريد الدخول في الإسلام فيقال له : آمن ، فيقول : أنا أؤمن إن شاء الله ، أو آمنت إن شاء الله ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد إن شاء الله أن لا إله إلا الله ، وأشهد إن شاء الله أن محمداً رسول الله .

والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنسـاء ، وإنما كان استثناؤـهم في إخباره عما قد حصل له من الإيمـان ، فاستثنـوا ، إما أن الإيمـان المطلـق يقتضـي دخـول الجـنة وهم لا يعلمـون الخـاتمة ، كأنـه إذا قـيل للرـجل : أنت مـؤمن ، قـيل له : أنت عند الله مـؤمن من أهـل الجـنة ، فيـقول : أنا كذلك إن شـاء الله ، أو لأنـهم لا يـعرفـون أنـهم أتـوا بـكمـال الإـيمـان الـواجب ، ولـهـذا كانـ من جـواب بعضـهم إذا قـيل له : أنت مـؤمن آمنتـ بالـله وـمـلـائـكتـه وـكتـبه ، فيـجـزمـ بهـذا ولا يـعلـقه ، أو يـقول : إنـ كنتـ تـريـد الإـيمـان الـذـي يـعـصـم دـمـي وـمـالـي فـأـنـا مـؤـمن ، وإنـ كنتـ تـريـد قولـه : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادُهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال : ٢ - ٣] وقولـه : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يُرْتَابُوا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجـرات : ١٥] فـأـنـا مـؤـمن إنـ شـاء الله ، وأـمـا الاستـثنـاء ، لمـ يـستـثنـ فيهـ أحدـ ولا شـرعـ الاستـثنـاءـ فيهـ ، بلـ كلـ منـ آمنـ وـأـسلـمـ آمنـ وـأـسلـمـ جـزـماً بلاـ تعـليـقـ .

فتـبيـنـ أنـ النـزـاعـ فيـ المسـأـلةـ قدـ يـكونـ لـغـطـيـاً ، فإنـ الذـيـ حـرـمهـ هـؤـلـاءـ غـيرـ الذـيـ استـحـسـنهـ وـأـمـرـ بهـ أـولـئـكـ ، وـمـنـ جـزـمـ بماـ فيـ قـلـبـهـ منـ الـحالـ . وـهـذاـ حقـ لاـ يـنـافـي تعـليـقـ الـكـمالـ وـالـعـاقـبةـ ، وـلـكـنـ هـؤـلـاءـ عـنـدـهـ الـأـعـمـالـ لـيـسـ منـ الإـيمـانـ ، فـصـارـ الإـيمـانـ هوـ الإـسلامـ عـنـدـ أـولـئـكـ .

وـالمـشـهـورـ عـنـدـ أـهـلـ الحـدـيـثـ أـنـهـ لاـ يـسـتـثـنيـ فيـ الإـسـلامـ ، وـهـوـ المـشـهـورـ عـنـ أـحـمـدـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، وـقـدـ روـيـ عـنـهـ فـيـ الـاسـتـثـنـاءـ ، كـمـاـ قـدـ بـسـطـ هـذـاـ فـيـ شـرحـ حـدـيـثـ

جبريل وغيره من نصوص الإيمان التي في الكتاب والسنة .

ولو قال لأمرأته: أنت طالق ان شاء الله ، ففيه نزاع مشهور ، وقد رجحنا التفصيل، وهو أن الكلام يراد به شيئاً، يراد به إيقاع الطلاق تارة، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ، فقوله : إن شاء الله مثل قوله بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع ، وإن كان قد علق لثلا يقع أو علقة على مشيئة توجد بعد هذا ، لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن يطلق ، وقول من قال المشيئة تنجذه ليس كما قال، بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق ، لا يقع إلا إذا طلقت المرأة، بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه من ولد أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال : أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لثلا يقع الآن ، وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحداً أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة ، فإذا علقة، فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله، أنا أؤمن بعد ذلك ، فهذا لم يصر مؤمناً مثل الذي يقال له : هل تصير من أهل دين الإسلام ، فقال : أصير إن شاء الله ، فهذا لم يسلم، بل هو باق على الكفر ، وإن كان قصده إني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله صار مؤمناً ، لكن إطلاق اللفظ يتحمل هذا وهذا ، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ في الإنماء . وأيضاً فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلاً ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنماء كما تقدم ، كيف وقد أمروا أن يقولوا : ﴿آمَنَا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة : ١٣٦] . وقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلِئَكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] فأخبر أنهم آمنوا فوق الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن كما يخبر عن نفسه بأنه بر تقي ، فيقول القائل له : أنت

مؤمن، هو عندهم كقوله : هل أنت برْ تقيٍ ، فإذا قال : أنا برْ تقيٍ ، فقد زكي نفسه ، فيقول : إن شاء الله ، وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له وجزاؤه عليه وكتابة الملك له ، فالاستثناء يعود إلى ذلك، لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ، بل يقال هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه ، قوله فيه «إن شاء الله» ، بمعنى إذا شاء الله ، وذلك تحقيق لا تعليق .

والرجل قد يقول : والله ليكون كذا إن شاء الله ، وهو جازم بأنه يكون ، فالمعنى هو الفعل ، كقوله : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح : ٢٧] والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمي : لأفعلن كذا إن شاء الله ، وهو لا يجزم بأنه يقع ، لكن يرجوه ، فيقول : يكون إن شاء الله ، ثم عزمه عليه قد يكون جازماً ، ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متربداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ولكن متى كان المعزوم عليه معلقاً لزم تعليق بقاء العزم ، فإنه بتقدير إن تعليق العزم ابتداء أو دواماً في مثل ذلك .

ولهذا لم يحيث المطلق المعلى وحرف أن لا يكون ، لا يبقي العزم ، فلا بد إذا دخل على الماضي صار مستقبلاً ، تقول : إن جاء زيد كان كذلك ﴿إِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْنَدُوا﴾ [البقرة : ١٣٧] ﴿وَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران : ٢٠] وإذا أريد الماضي دخل حرف «كان» كقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران : ٣١] ، فيفرق بين قوله : أنا مؤمن إن شاء الله ، وبين قوله : إن كان الله شاء إيماني .

وكذلك إذا كان مقصوده إني لا أعلم بماذا يختتم لي ، كما قبل لأبي مسعود : إن فلاناً يشهد أنه مؤمن ، قال : فليشهد أنه من أهل الجنة ، فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان ، وكذلك إن كان مقصوده أن إيماني حاصل بمشيئة الله .

ومن لم يستشن قال أنا لا أشك في إيمان قلبي ، فلا جناح عليه إذا لم يزك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر ، وقد تقبل الله عمله وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل

وأبى بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة ، كما كان مسurer بن كدام يقول : أنا لا أشك في إيماني ، قال أحمد : ولم يكن من المرجئة ، فان المرجئة الذين يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ، وهو كان يقول: هي من الإيمان ، لكن أنا لا أشك في إيماني .

وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة : ألا تنهى عن هذا فإنهما من قبيلة واحدة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .
والمقصود هنا أن التزاع في هذا وكان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعه في كثير من الأحكام ، وكا لهم من أهل الإيمان والقرآن .

وأما جهم فكان يقول : إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك إن كل من حكم الشرع بکفره حكمنا بکفره واستدللنا بتکفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم في الإيمان .

والأصل الذي منه نشأ التزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع كما ذكر الأشعري أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء كما كان أصل القدر عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبين ، قالت الخوارج والمعزلة : قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ، لأن الإيمان لا يتبعض ، ولا يكون في العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنب مخلدين في النار إذا كان ليس معهم من الإيمان شيء ، وقالت المرجئة مقتضياتهم وغلاتهم كالجهمية : قد علمنا أن أهل الذنب من أهل القبلة لا يخلدون في النار بل يخرجون منها ، كما تواترت بذلك الأحاديث وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ، فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب

قتلهم ، وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم في أحكامهم في الدنيا .

والخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحيثند فقد يقولون ليس في القرآن قتل المرتد فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف كما وقفتنا على كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرامية والأشعرية والسامية وأهل المذاهب الأربعية والظاهيرية ومذاهب أهل الحديث والفلسفه والصوفية ونحو هؤلاء ، وقد بسط الكلام على تفصيل القول في أقوال هؤلاء في غير هذا الموضوع .

وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم ، فيبدأ بالخوارج ، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه ، فيبدأ بالمرجئة ويختتم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه كعبد الله ابنه ونحوه ، وكالخلال وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما ، وكأبي الفرج المقدسي . وكلا الطائفتين تختتم بالجهمية لأنهم أغلطوا البدع ، وكالبخاري في « صحيحه » فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ولما صنف الكتاب في الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولاً مع الجهمية ، وكذلك رتب أبو القاسم الطبرى كتابه في أصول السنة ، والبيهقي أفرد لكل صنف مصنفاً ، فله مصنف في الصفات ، ومصنف في القدر ، ومصنف في شعب الإيمان ، ومصنف في دلائل النبوة ، ومصنف في البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع في الأسماء والأحكام في الإيمان والإسلام أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض قال أولئك : فإذا فعل ذنبًا زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار ، فقالت الجهمية والمرجئة : قد علمنا أنه ليس يخلد في النار وأنه ليس كافراً مرتدًا بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تمام الإيمان

معه بعض الإيمان ، لأن الإيمان عندهم لا يتبعض ، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة . فقال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية بعد تصديق اللسان : قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً ، فالذى لا بد منه تصدق القلب ، وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال ، وأنكر كل هذه الطوائف أنه ينقص .

والصحابة قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول أئمة السنة . وكان ابن المبارك يقول : هو يتفاصل ويترافق ويمسك عن لفظ ينقص ، وعن مالك في كونه لا ينقص روايات ، والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع ، ودللت النصوص على نقصه ، كقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) ونحو ذلك . لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا في قوله في النساء : « ناقصات عقل ودين »^(٢) وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضرت لا تصوم ولا تصلى ، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاصل من وجهين : من جهة أمر الرب ومن جهة فعل العبد .

(١) رواه البخاري ٨٦/٥ في المظالم : باب النهي بغير إذن صاحبه ، و ٢٨/١٠ في الأشربة : الباب الأول ٥٠/٥ في الحدود : باب الزنا وشرب الخمر ، و ١٠١/١٢ في الحدود : باب إثم الزنا وقول الله تعالى : « ولا يزنيون »^٤ (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبلاً) ، ومسلم رقم (٥٧) في الإيمان : باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي وأبوداود رقم (٤٦٨٩) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذى رقم (٢٦٢٧) في الإيمان : باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن ، والنمسائي ٦٤/٨ في السارق : باب تعظيم السرقة ، وأحمد في « المسند » ٣١٧/٢ ، و ٣٨٦ كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه البخاري ٧١/١٢ في الحدود : باب السارق حين يسرق ، و ١٠١/١٢ في الحدود : باب إثم الزنا ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم رقم (٧٩) في الإيمان : باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات ، وأبوداود رقم (٤٦٧٩) في السنة ، من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، إن النبي ﷺ قال : « يا معاشر النساء تصدقن ، وأكثرن الاستغفار ، فإني رأيتكم أكثر أهل النار » قالت امرأة منها جزلة : ما لنا أكثر أهل النار ؟ قال : « تکثرن اللعن وتکفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب الذي ليس منكم » قالت : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : « شهادة امرأتين بشهادة رجل ، وتمكث الأيام لا تصلى » . ورواه أيضاً البخاري ٣٧٤/٢ في العيددين ، وفي الحيس ، وفي الزكاة ، وفي الصوم ، وفي الشهادات ، ومسلم رقم (٨٨٩) في العيددين ، والنمسائي ١٨٧/٣ من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه .

أما الأول ، فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك ، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس ، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوّع الإيمان في الشريعة الواحدة .

وأيضاً فمن وجوب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملًا ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها وبيؤديها ، فلم يتتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان .

وهذا من أصول غلط المرجحة ، فإنهم ظنوا أنه شيء واحد ، وأنه يستوي فيه جميع المكلفين ، فقالوا : إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أوقرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس ، فيقال لهم : قد تبين أن الإيمان الذي أوجبه الله على عباده يتتنوع ويتفضل ويتبادر فيه تبايناً عظيماً ، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر ، ويجب على الأنبياء من الإيمان ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على الأمراء ما لا يجب على غيرهم .

وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط ، بل ومن التصديق والإقرار ، فإن الناس وإن كان يجب عليهم الإقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول ، فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به ، وما لم يعلموا كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلاً ، وما لم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الأمر به ، فمن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج والإيمان بها ، فيجب عليه من الإيمان والعمل ما لا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ومن الإيمان بذلك والعمل به ما لا يجب على غيره ، فيجب عليه من العلم والإيمان والعمل ما لا يجب على غيره إذا جعل العلم والعمل ليسا من الإيمان ، وإن

جعل جمع ذلك داخلاً في مسمى الإيمان كان أبلغ ، بكل حال قد وجب عليه من الإيمان ما لا يجب على غيره .

ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملًا ، فإذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها ، فيصير منافقاً مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة إلى الكعبة ، وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أحد ، ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر ذلك في سورة المنافقين . وذكر مثل ذلك في سورة البقرة ، فقال : « مَنْهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ دَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ * صُمُّ بُكْمُ عُمَيْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » [البقرة : ١٧ - ١٨] وقال طائفة من السلف : عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا .

فمن هؤلاء من كان يؤمن أولاً إيماناً مجملأ ثم يأتي أموراً يؤمن بها ، فينافق في الباطن وما يمكنه اظهار الردة بل يتكلم بالتفاق مع خاصته ، وهذا كما ذكر الله عنهم في الجهاد فقال : « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةً مُحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةً وَقَوْلًا مَعْرُوفًا فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » [محمد : ٢٠ - ٢١].

وبالجملة فلا يمكن المنازعه أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاصلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبي ﷺ في النساء « ناقصات عقل ودين »^(١) ، قال في نقصان دينهن أنها إذا حاضرت لا تصوم ولا تصلي ، وهذا مما أمر الله به ، فليس هذا النقص ديناً لها تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل من لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصياً ، فهذا أفضل ديناً وإيماناً ، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم ، فهذه زيادة كزيادة

(١) تقدم تخرجه قبل قليل ص ٣٣

الإيمان بالتطوعات ، لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص ، وليس بواجب في حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذلك لا يستحق العقاب بتركها ، ولكن إيمان ذلك أكمل ، قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(١).

فهذا يبين تفاصيل الإيمان في نفس الأمر به، وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها .

والنوع الثاني وهو تفاصيل الناس في الإيتان به مع استواهم في الواجب ، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع، وكلاهما محل النزاع ، وهذا أيضاً يتفضلون فيه ، فليس إيمان السارق والرذاني والشارب ، كإيمان غيرهم ، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى فهو كذلك أفضل إيماناً كما قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(١) وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق كما في « الصحيحين » عن النبي ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا آوًتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصل فجر »^(٢) .

وأصل هؤلاء أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفضل بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع العباد فيما أوجبه رب من الإيمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال ، فغلطوا

(١) رواه الترمذى رقم (١١٦٢) في الرضاع : باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ، وأبو داود (٤٦٨٢) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، وأحمد في « المستند » ٢٥٠ / ٤٧٢ و ٢٥٠ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم .

(٢) رواه البخارى ٨٤ / ١ في الإيمان : باب علامات المنافق ، وفي المظالم : باب إذا خاصل فجر ، وفي الجهاد : باب إثم من عاهد ثم غدر ، ومسلم رقم (٥٨) في الإيمان : باب بيان خصال المنافق ، وأبو داود رقم (٤٦٨٨) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذى رقم (٢٦٣٤) في الإيمان : باب ما جاء في علامة المنافق ، والنمسائي ١١٦ / ٨ في المنافق ، وأحمد في « المستند » ٢ / ٢٠٠ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم .

في هذا وهذا ، ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال ، فعلماؤهم وأئمتهم أحسنهم قولًا ، وهو أنَّ قالوا : الإيمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية : هو تصدق القلب فقط ، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل بالإيمان ، لكن إن كان مقرأً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذبًا بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار .

وهذا القول هو الذي اختصت به طائفة الكرامية وابتدعته ، ولم يسبقها أحد إلى هذا القول ، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان . وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة ، وهو غلط عليهم ، بل يقولون : إنه مؤمن كامل بالإيمان وإنه من أهل النار ، فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل بالإيمان معذبًا في النار بل يكون مخلداً فيها .

وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان^(١) ، وإن قالوا : لا يخلد وهو منافق لزمه أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » [النساء : ١٤٥].

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم ، وقال له : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أُوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ سَتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » [التوبه : ٨٠] ، وقال : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » [التوبه : ٨٤] ، وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فإن قالوا : هؤلاء فقد كانوا يتكلمون بالستهم سراً فكفروا بذلك ، وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه ، فإن ذلك رده عن الإيمان .

قيل لهم : ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين ، قال تعالى :

(١) قطعة من حديث الشفاعة المتقدم ص ٢٥ .

﴿ يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيَّنُهُمْ فَلْ اسْتَهْزُرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذِرُونَ ﴾ [التوبه : ٦٤]. وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم ، وأنهم كاذبون ، فقال تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » [البقرة : ٨] ، وقال تعالى : « إِذَا جَاءَكُمُ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » [المنافقون : ١]. وقد قال النبي ﷺ : « الإسلام علانية والإيمان في القلب »^(١). وقد قال الله تعالى : « قَاتَلَ الْأَعْرَابُ آمَنَ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ » [الحجرات : ١٤]. وفي الصحيحين^(٢) عن سعد بن أبي ثابت رضي الله عنه أطعم رجالاً ولم يعطهم جلاً فقلت: يا رسول الله! أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن، فقال: « أو مسلم » مرتين أو ثلاثة، وبسط الكلام في هذا له مواضع أخرى، وقد صنفت في ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غير ذلك.

وكلام الناس في هذا الاسم ومسماه كثير ، لأنه قطب الدين الذي يدور عليه ، وليس في القول اسم علق به السعادة والشقاء والمدح والذم والثواب والعقاب أعظم من اسم الإيمان والكفر ، ولهذا سمي هذا الأصل مسائل الأسماء والأحكام ، وقد رأيت لابن الهيثم^(٣) فيه مصنفًا أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن البارقي في مصنفه أنه تصدق القلب فقط ، وكلاهما في عصر واحد ، وكلاهما يرد على المعزلة والرافضة .

والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيئاً ، صار هؤلاء

(١) تقدم تخریجه ص ٢٦ .

(٢) رواه البخاري ٣/٢٧٠ في الزكاة : باب قول الله تعالى : « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَحْافًا » وفي الإيمان : باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام ، والخوف من ، ومسلم رقم (١٥٠) في الإيمان : باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه ، وأبو داود رقم (٤٦٨٣) و(٤٦٨٤) و(٤٦٨٥) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والنمساني ٨/١٠٣ و١٠٤ في الإيمان : باب تأويل قوله عز وجل : « قاتل الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ». .

(٣) هو علي بن عبد الله بن محمد بن الهيثم البهروي ، من علماء القرن الثالث الهجري .

عמדتهم في الباطن ، ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها ، يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما طنوا أنه يوافقها من القرآن احتاجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتاجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر إلى غير ذلك والأيات التي تخالفهم يشروعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن ، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي والأمدي وابن الحاجب : إن الأمة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ، بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين ، فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الصلال في تفسير القرآن والحديث ، وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون . ولكن قالوا : إن الله أراد معنى آخر ، وهم لو تصوروا هذه المقالة لم يقولوا هذا ، فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلاله ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ ، والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأنلوها ما خالفهم .

والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال في لفظ الآية يجوز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى ، وكذلك إذا قال : يجوز أن يراد بها هذا المعنى ، والأمة قبله لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة ، وأخبرت أن مراده غير ما أراده .

لكن الذي قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد ، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ، ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا الآية ، ولكن طائفه قالت : يجوز أن ي يريد هذا المعنى ، وطائفه قالت : يجوز أن ي يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من

علم المراد ، فجاء الثالث وقال : ها هنا معنى يجوز أن يكون هو المراد ، فإذا كانت الأمة من الجهل بمعاني القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال ، توجه ما قالوه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن كثيراً من المتأخرین لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول ، بخلاف السلف ؛ فلهذا كان السلف أكمل علمًا وإيماناً ، وخطؤهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه ، وكان الأصل الذي أرسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾ [الحجرات : ۱] ، فإن هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخِذِ الرَّحْمَنَ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادُ مُكَرَّمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلُّ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهُمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ۲۶ - ۲۹] . فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره و قوله ، كما قال : ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وأعمالهم تابعة لأمره فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به ، فهم مطيعون لأمره سبحانه .

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال : ﴿قُوَا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيَّكُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شَدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾ [التحريم : ۶] ، وقد ظن بعضهم أن هذا توكيده ، وقال بعضهم : بل لا يعصونه في الماضي ويفعلون ما أمروا به في المستقبل .

وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتناع ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً ، فإذا قال : «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرُهُمْ» لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرؤن ، فإن العاجز ليس ب العاص ولا فاعل لما أمر به فقال : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾ ليبين أنهم قادرؤن على فعل ما أمرؤا

بـه ، فـهم لا يـتركونه لا عـجزاً ولا مـعصـية ، والمـأمور إنـما يـترك ما أـمرـه لـأـحـدـهـذـينـ، إـما أنـ لا يـكون قـادـراً ، وإـما أنـ يـكون عـاصـياً لا يـريد الطـاعـة ، فـإـذا كان مـطـيـعاً يـريد طـاعـةـ الـأـمـرـ وـهـوـقـادـرـ، وجـبـ وـجـودـ فـعـلـ ما أـمـرـ بـهـ ، فـكـذـلـكـ الـمـلـائـكـةـ الـمـذـكـورـونـ لاـ يـعـصـونـ اللهـ ماـ أـمـرـهـ وـيـفـعـلـونـ ماـ يـؤـمـرونـ .

وقد وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَلَا يَشْقَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى وَهُمْ مِنْ حَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلُّ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيَهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنباء : ٢٦ - ٢٩] .

فالملائكة مصدقـونـ بـخـبرـ ربـهـمـ مـطـيـعـونـ لـأـمـرـهـ ، وـلـاـ يـخـبـرـونـ حتـىـ يـخـبـرـ ، وـلـاـ يـعـمـلـونـ حتـىـ يـأـمـرـ ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ وـقـدـ أـمـرـ اللـهـ الـمـؤـمـنـيـنـ أـنـ يـكـونـواـ مـعـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ كـذـلـكـ ، فـإـنـ الـبـشـرـ لـمـ يـسـمـعـواـ كـلـامـ اللـهـ مـنـهـ بـلـ بـيـنـهـ رـسـوـلـهـ وـبـيـنـهـ رـسـوـلـ الـبـشـرـ ، فـعـلـيـهـمـ أـنـ لـاـ يـقـولـواـ حتـىـ يـقـولـ الرـسـوـلـ مـاـ بـلـغـهـمـ عـنـ اللـهـ ، وـلـاـ يـعـمـلـونـ إـلـاـ بـمـاـ أـمـرـهـ بـهـ ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١] .

قال مجاهد : لا تفتـنـواـ عـلـيـهـ بـشـيءـ حتـىـ يـقـضـيـهـ اللـهـ عـلـىـ لـسانـهـ ، تـقـدمـواـ معـناـهـ تـقـدمـواـ ، وـهـوـ فعلـ لـازـمـ ، وـقـدـ قـرـىـءـ ﴿ تَقْدُمُوا ﴾ يـقـالـ : قـدـمـ وـتـقـدمـ ، كـمـاـ يـقـالـ : بـيـنـ وـتـبـيـنـ ، وـقـدـ يـسـتـعـمـلـ قـدـمـ مـتـعـديـاًـ أـيـ قـدـمـ غـيرـهـ ، لـكـنـ هـنـاـ هوـ فعلـ لـازـمـ فـلـاـ تـقـدمـواـ معـناـهـ لـاـ تـقـدمـواـ بـيـنـ يـدـيـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ .

فـعـلـىـ كـلـ مـؤـمـنـ أـنـ لـاـ يـتـكـلمـ فـيـ شـيـءـ مـنـ الدـيـنـ إـلـاـ تـبـعـاًـ لـمـ جـاءـ بـهـ الرـسـوـلـ ، وـلـاـ يـتـقـدـمـ بـيـنـ يـدـيـهـ بـلـ يـنـظـرـ مـاـ قـالـ ، فـيـكـونـ قـولـهـ تـبـعـاًـ لـقـولـهـ، وـعـلـمـهـ تـبـعـاًـ لـأـمـرـهـ ، فـهـذـاـ كـانـ الصـحـابـةـ وـمـنـ سـلـكـ سـبـيلـهـمـ مـنـ التـابـعـيـنـ لـهـمـ بـإـحـسـانـ وـأـئـمـةـ الـمـسـلـمـيـنـ ، فـلـهـذـاـ لـمـ يـكـنـ أـحـدـ مـنـهـمـ يـعـارـضـ النـصـوصـ بـمـعـقـولـهـ وـلـاـ يـؤـسـسـ دـيـنـاـ غـيرـ مـاـ جـاءـ بـهـ الرـسـوـلـ ، وـإـذـاـ أـرـادـ مـعـرـفـةـ شـيـءـ مـنـ الدـيـنـ وـالـكـلـامـ فـيـهـ نـظـرـ فـيـمـاـ قـالـهـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ ، فـمـنـهـ يـتـعـلـمـ وـبـهـ يـتـكـلمـ ، وـفـيـهـ يـنـظـرـ وـيـتـفـكـرـ ، وـبـهـ يـسـتـدـلـ ، فـهـذـاـ أـصـلـ أـهـلـ السـنـةـ ، وـأـهـلـ الـبـدـعـ لـاـ يـجـعـلـونـ

اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول، بل على ما رواه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرجوها تأويلاً .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنّة وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنّة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين ، بل ناصبي الإيمان مبتدعين ، وخطئهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

فصل

وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ﴿ وَلَقَدْ جَاءُهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطنًا وظاهرًا ، فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقايضه ، وحينئذ فمن اعتقاد نقايضه كان اعتقاده باطلًا ، والاعتقاد الباطل لا يكون علمًا ، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه ، فمن نهى عنه فهو نهي عن العدل ، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم ، فإن ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلاً وظلماً ظناً وما تهوى الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما أن يكون كان شرعاً لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدنىهما أن يكون ما شرع فقط بل يكون من المبدل ، فكل ما خالف حكم الله ورسوله، فإما شرع منسوخ ، وإما شرع مبدل ما شرعه الله بل شرعه شارع بغير إذن من الله كما قال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءٌ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

لكن هذا وهذا قد يقعان في خفي الأمور ودقائقها باجتهاد من أصحابها ، استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق ، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ، ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول

كان ظاهراً بينهم ، فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول ، وهم معتصمون بحبل الله يحکمون الرسول فيما شجر بينهم لا يتقدّمون بين يدي الله ورسوله فضلاً عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم ، فكثر من المتأخرین مخالفة الكتاب والسنۃ ما لم يكن مثل هذا في السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معدورين يغفر الله لهم خطاياهم ويثبّتهم على اجتهدهم . وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملها في ذلك الزمان ، لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك ، لكن تضييف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ، ولا يكون فاضلهم كفافاً للصحابة ، فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجهه قبل أن تنتشر دعوه وظهور كلمته ، وتكثر أعوانه وأنصاره ، وتنتشر دلائل نبوته ، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين ، وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال ، أمر ما بقي يحصل مثله لأحد كما في « الصحيحين » عنه ﷺ « لا تسبُوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه »^(١) .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال: « خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »^(٢) . فجملة القرن الأول أفضل من القرن

(١) رواه البخاري ٢٧/٢٧ - ٢٨ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخدناً خليلاً » ومسلم رقم ٢٥٤١ في فضائل الصحابة : باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ، وأبي داود رقم ٤٦٥٨ في السنة : باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ ، والترمذی رقم ٣٨٦٠ في المناقب : باب في سب أصحاب النبي ﷺ ، وأحمد في « المسند » ١١/٣ و٥٤ ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) تقديم تحريره ص ١٥ .

الثاني ، والثاني أفضل من الثالث ، والثالث أفضل من الرابع ، لكن قد يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث ، وكذلك في الثالث مع الثاني ، وهل يكون فيما بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ؟ هذا فيه نزاع ، وفيه قولان ، حكاهما القاضي عياض وغيره ، ومن الناس من يفرضها في مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز ، فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي ﷺ ، وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن من خالف الرسول فلا يعرو أن يتبع الظن وما تهوي الأنفس كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى : ﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم : ٢٣].

وقال في الذين يخبرون عن الملائكة أنهم أناث : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُتْشِيَّ * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّ إِنْ ذَكْرُنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴾ [النجم : ٢٧ - ٣٠] ، وهم جعلوهم إناثاً كما قال : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِناثًا ﴾ وفي القراءة الأخرى عند الرحمن إناثاً ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَأْلَوْنَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ، وهؤلاء قال عنهم ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ لأنه خبر محض ليس فيه عمل ، وهناك ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها ، فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم ، فقال ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ .

والذي جاء به الرسول كما قال : ﴿ وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يُنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ١ - ٥] . وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوي الأنفس ، فإن كان ممن يعتقد ما قاله قوله فيه حجة يستدل بها كان غايتها الظن الذي لا يعني من

الحق شيئاً ، كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقى إليهم اعتقادوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلًا : إما أن يحتاج بأدلة عقلية ويظنه برهاناً وأدلة قطعية ، وتكون شبكات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعاني متشابهة ، لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل ذلك في جميع ما يحتاج به من خالف الكتاب والسنّة ، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وهذه هي الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية ، فإما أن تكون كذباً على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتاج بها أهل البطول ، فالمنع إما في الإسناد ، وإما في المتن ، ودلالته على ما ذكر ، وهذه الحجج السمعية ، هذه حجج أهل العلم الظاهر .

وأما حجة أهل الذوق والوجود والمكاشفة والمخاطبة ، فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة ، كما في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمراً »^(١) وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطهعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنها تجلّى لهم أمور صادقة .

وفي الترمذى^(٢) عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَّسِّمِينَ﴾ [الحجر : ٧٥] وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم .

وفي « صحيح البخارى »^(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ولا يزال

(١) رواه البخارى ٤٠/٧ و ٤١ في فضائل النبي ﷺ : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، مسندًا ومعلقاً ، وفي الأبياء : باب ما ذكر عنبني إسرائيل ، ومسلم رقم (٢٣٩٨) في فضائل الصحابة : باب من فضائل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٥٥/٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رقم (٣١٢٥) في التفسير : باب ومن سورة الحجر ، وفي سنته عطية العوفى ، وهو ضعيف ، وأورده السوطى في « الدر المثور » ٤/١٠٣ وزاد نسبته لابن جرير وابن أبي حاتم والبخارى في « التاريخ » وابن السنى وأبي نعيم معاً في الطب ، وابن مردوخ والخطيب .

(٣) رقم (٢٩٢/١١) في الرقاق : باب التواضع . انظر « الفتح » وما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » حول هذا الحديث ص ٣١٣ .

عدي يتقرب إلى بالنواقل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ». وفي رواية «في يسمع ، وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشي » فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به .

وكانوا يقولون إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه ، وقال عليه السلام : « من سأل القضاء واستعن عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسده »^(٤) وقال الله تعالى : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور : ٣٥] الإيمان مع نور القرآن : وقال تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ وَيَتَلَوُ شَاهِدًا مِّنْهُ﴾ [هود : ١٧] وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله وهو القرآن ، شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان .

وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم : أهل التصفيه والرياضة والعبادة والتائه يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر ، كما قال الشيخ الملقب بالكبيري للرازي ورفيقه ، - وقد قال له : ياشيخ ! بلغنا أنك تعلم علم اليقين ؟ ! فقال : نعم ، فقال : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده ؟ فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردتها ؛ فجعلها يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات ، فعلمه الشيخ وأدبها حتى حصلت له ، وكان من المعتزلة النفا ، فيبين له أن الحق مع أهل الإثبات وأن الله سبحانه فوق سمواته وعلم ذلك بالضرورة .

رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، وذكر أن الشيخ الكبيري حاكها له وكان قد حدثني بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه ، وكلام المشايخ في مثل هذا كثير

(٤) رواه أبو داود رقم (٣٥٧٨) في الأقضية : باب في طلب القضاء والتسريع إليه ، والترمذني رقم (١٣٢٣) و (١٣٢٤) في الأحكام : باب ما جاء في القاضي ، وابن ماجه رقم (٢٣٠٩) في الأحكام : باب ذكر القضاة ، وأحمد في « المسند » ١١٨/٣ و ٢٢٠ . من حديث أنس رضي الله عنه وهو حديث حسن .

وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري . والنظري مستند إلى الضروري ، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه معه الانفكاك عنه ، هذا حد القاضي أبي بكر الطيب وغيره ، فخاسته أنه يلزم النفس لزوماً لا يمكن مع ذلك دفعه ، فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوماً لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال : « واردات » لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسکينة توجب العمل به ، فالواردات تحصل بهذا وهذا .

وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار متقدميهم كالكيا الهراسي والغزالى وغيرهما ، ومتاخريهم كالرازي والأمدي ، وقالوا : نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر ، هذا لا يدفعه ، لكن ان لم يكن علماً ضرورياً فلا بد له من دليل ، والدليل يكون مستلزمأً للمدلول عليه بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه ، قالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل ، وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع لكن يقع أيضاً ما يظن أنه منه كبير أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع في الأدلة العقلية والسمعية ، فمن هؤلاء من يسمع خطاباً ، أو يرى من يأمره بقضية ، ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان ، وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب ، ورجال الغيب هم الجن ، وهو يحسب أنه إنسى ، وقد يقول له : أنا الخضر ، أو إلياس ، بل أنا محمد ، أو إبراهيم الخليل ، أو المسيح ، أو أبو بكر ، أو عمر ، أو أنا الشيخ فلان ، أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به في الهواء أو يأتيه بطعم أو شراب أو نفقة ، فيظن هذا كرامة ، بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ، ويكون ذلك شيطاناً أليس عليه .

فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط في السمعيات والعقليات ، فهو لاء يتبعون ظناً لا يعني من الحق شيئاً ، ولو لم يتقدموا بين

يدى الله ورسوله ، بل اعتصمو بالكتاب والسنّة لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه وووجهه وما يجده محبوباً إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة ، فيكون متابعاً لهواه بلا ظن ، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه ، كقول المشركين : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٣] وإن عكسوا احتجوا بالقدر ، وهو أن الله أراد هذا سلطاناً عليه فهم يعملون بهواهم ، وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم ، كالملوك المسلمين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله ، فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله فيقولون ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يعتمدون على ما أوتوا من القوة والتصرف والحال ، فإن هذا من الجد ، وقد كان النبي ﷺ يقول عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع : « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »^(١).

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان وووجهه بحلوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك سلطاناً من الله وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متابعاً لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ كَانَ صَاحِبَهُ مُتَّبِعاً لِهَوَاهُ بَغْيَرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص : ٥٠] وقال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَصْلُلُ مِمَّنِ اتَّبَعُ هَوَاهُ بَغْيَرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ [الأعراف : ١٩٩]

وكذلك من اتبع ما يريد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبة ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنّة ، فإنما يتبع ظناً لا يغني من الحق شيئاً .

(١) رواه البخاري ٢٧٥ / ٢ في صفة الصلاة : باب الذكر بعد الصلاة ، وفي الدعوات : باب الدعاء بعد الصلاة ، ومسلم رقم (٥٩٣) في المساجد : باب استعياب الذكر بعد الصلاة ، وأبو داود رقم (١٥٠٥) في الصلاة : باب ما يقول الرجل إذا أسلم ، والنفائى ٧٠ / ٣ في السهو : باب نوع آخر من القول عند انقضاء الصلاة ، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر ، كما قال ﷺ : « إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد ، فعمر منهم »^(٢) . وقد وافق عمر ربه في عدة^(٣) أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ، ولا يقبل ما يرد عليه [تبعاً] ، وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبيّن له أشياء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ، ويوم ناظره من مانع الزكاة ، وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن ، فيرجع إليها كما جرى في مهور النساء ، ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به الرسول ، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطئوا وضلوا وتركوا ذلك ، واستغنووا بما ورد عليهم ، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول ، وصار أحدهم يقول : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فيقال له : أما ما نقله الثقات عن المعمصون فهو حق ، ولو لا النقل المعصوم لكتنت أنت وأمثالك إما من المشركين وإما من اليهود والنصارى ، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله ؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان ؟

والوحي وحيان : وحي من الرحمن ، ووحي من الشيطان ، قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُونَ إِلَيْ أُولَئِكَهُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] ، وقال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمُ إِلَيْ بَعْضٍ رُّخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَنْبَثْكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ [الشعراء : ٢٢١] .

(١) تقدم تخریجه ص ٤٥ .

(٢) من هذه المواقفات :

موافقته تلوّي في أمر الأذان ، وموافقته لخبر السماء في أمر أسري بدر ، وموافقته للقرآن الكريم في أمر الحجاب وموافقته في الصلاة خلف مقام ابراهيم عليه السلام ، وغير ذلك .

وقد كان أنمختار بن أبي عبيد من أئمـةـ الضرب حتى قيل لابن عمر وابن عباس ، قيل لأحدهما : إنه يقول : إنه يوحـيـ إلـيـهـ ، فقال : وإن الشياطين ليـوحـونـ إلىـ أولـيـائـهـمـ ليـجـادـلـوكـمـ . وقيل للآخر : إنه يقول : إنه يـنـزـلـ عـلـيـهـ ، فقال : هلـ أـنـبـئـكـمـ عـلـىـ مـنـ تـنـزـلـ الشـيـاطـيـنـ .

فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوـيـ الشـرـعـيـ أـعـظـمـ منـ حـاجـةـ غيرـهـمـ . وهـؤـلـاءـ لـهـمـ حـسـيـاتـ يـرـوـنـهـاـ وـيـسـمـعـونـهـاـ ،ـ وـالـحـسـيـاتـ يـضـطـرـ إـلـيـهـ إـلـيـهـ إـلـيـهـ بـغـيـرـ اـخـتـيـارـهـ ،ـ كـمـاـ قـدـ يـرـىـ إـلـيـهـ أـشـيـاءـ وـيـسـمـعـ أـشـيـاءـ بـغـيـرـ اـخـتـيـارـهـ ،ـ كـمـاـ أـنـ النـظـارـ لـهـمـ قـيـاسـ وـمـعـقـولـ وـأـهـلـ السـمـعـ لـهـمـ أـخـبـارـ مـنـقـولـاتـ ،ـ وـهـذـهـ الـأـنـوـاعـ الـثـلـاثـةـ هـيـ طـرـقـ الـعـلـمـ الـحـسـ وـالـخـبـرـ وـالـنـظـرـ ،ـ وـكـلـ إـنـسـانـ مـنـ هـذـهـ الـثـلـاثـةـ فـيـ بـعـضـ الـأـمـورـ ،ـ لـكـنـ يـكـوـنـ بـعـضـ الـأـنـوـاعـ أـغـلـبـ عـلـىـ بـعـضـ النـاسـ فـيـ الـدـيـنـ وـغـيـرـ الـدـيـنـ ،ـ كـاـلـطـبـ إـلـيـهـ تـجـربـاتـ وـقـيـاسـاتـ ،ـ وـأـهـلـهـ مـنـهـمـ مـنـ يـغـلـبـ عـلـيـهـ التـجـربـةـ ،ـ وـمـنـهـمـ مـنـ يـغـلـبـ عـلـيـهـ الـقـيـاسـ ،ـ وـالـقـيـاسـ أـصـلـهـ التـجـربـةـ ؟ـ وـالـتـجـربـةـ لـاـ بـدـ فـيـهـاـ مـنـ قـيـاسـ .ـ لـكـنـ مـثـلـ قـيـاسـ الـعـادـيـاتـ لـاـ يـعـرـفـ فـيـ الـعـلـةـ وـالـمـنـاسـبـ ،ـ وـصـاحـبـ الـقـيـاسـ مـنـ يـسـتـخـرـجـ الـعـلـةـ الـمـنـاسـبـ وـيـعـلـقـ الـحـكـمـ بـهـاـ ،ـ وـالـعـقـلـ خـاصـةـ الـقـيـاسـ وـالـاعـتـبـارـ وـالـقـضـيـاـ الـكـلـيـةـ ،ـ فـلـاـ بـدـ لـهـ مـنـ الـحـسـيـاتـ الـتـيـ هـيـ الـأـصـلـ لـيـعـتـبـرـ بـهـاـ ،ـ وـالـحـسـ اـنـ لـمـ يـكـنـ مـعـ صـاحـبـهـ عـقـلـ إـلـاـ فـقـدـ يـغـلـطـ .ـ وـالـنـاسـ يـقـولـونـ غـلـطـ الـحـسـ ،ـ وـالـغـلـطـ تـارـةـ مـنـ الـحـسـ ،ـ وـتـارـةـ مـنـ صـاحـبـهـ ،ـ فـانـ الـحـسـ يـرـىـ اـمـرـاـ مـعـيـنـاـ فـيـظـنـ صـاحـبـهـ فـيـ شـيـئـاـ آـخـرـ ،ـ فـيـؤـتـىـ بـمـنـ ظـنـهـ فـلـاـ بـدـ لـهـ مـنـ الـعـقـلـ .ـ

ولـهـذـاـ النـائـمـ يـرـىـ شـيـئـاـ وـتـلـكـ الـأـمـورـ لـهـاـ وـجـودـ وـتـحـقـيقـ ،ـ وـلـكـنـ هـيـ خـيـالـاتـ وـأـمـثلـةـ ،ـ فـلـمـاـ عـزـبـ ظـنـهـ الرـائـيـ نـفـسـ الـحـقـائقـ ،ـ كـاـلـذـيـ يـرـىـ نـفـسـهـ فـيـ مـكـانـ آـخـرـ يـكـلمـ أـمـواـتـاـ وـيـكـلـمـونـهـ ،ـ وـيـفـعـلـ أـمـورـاـ كـثـيرـةـ وـهـوـ فـيـ النـومـ يـجـزـمـ بـأـنـهـ نـفـسـهـ الـذـيـ يـقـولـ وـيـفـعـلـ ،ـ لـأـنـ عـقـلـهـ عـزـبـ عـنـهـ ،ـ وـتـلـكـ الـصـورـةـ الـتـيـ رـآـهـاـ مـثـالـ صـورـتـهـ وـخـيـالـهـ ،ـ لـكـنـ غـابـ عـقـلـهـ عـنـ نـفـسـهـ حـتـىـ ظـنـ أـنـ ذـلـكـ الـمـثـالـ هـوـ نـفـسـهـ ،ـ فـلـمـاـ ثـابـ إـلـيـهـ عـقـلـهـ عـلـمـ أـنـ ذـلـكـ خـيـالـاتـ وـمـثـالـاتـ .ـ

وـمـنـ النـاسـ مـنـ لـاـ يـغـيـبـ عـقـلـهـ بـلـ يـعـلـمـ فـيـ الـمـنـامـ أـنـ ذـلـكـ فـيـ الـمـنـامـ ،ـ وـهـذـاـ

كالذى يرى صورته في المرأة أو صورة غيره ، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص ، حتى إنه يفعل به ما يفعل بالشخص ، وهذا يقع للصبيان والبله ، كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل فيظنهونه شخصاً حقيقياً ، ولا يعلمون أنه خيال ، فالحس أحسن صحيح حمل يغلط ، لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال . فإن العقل قد عقل قبل هذا أن مثل هذا يكون مثلاً ، وقد عقل لوازم الشخص بعينه ، وأنه لا يكون في الهواء ولا في المرأة ولا يكون بدنه في غير مكانه ، وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم كحال النائم ، وهذا يعرفه كل أحد ، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً رونها عياناً ، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره ، ويخاطبهم أولئك الأشخاص ويحملونهم وينهبون بهم إلى عرفات فيقرون بها ، وإنما إلى غير عرفات ، ويأتونهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح وغير ذلك يخرجون إلى الناس ، ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه ، مثل من يكون له إرادة في امرأة أو صبي فيأتونه بذلك ، إما محمولاً في الهواء ، وإنما بسعى شديد ، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه ، أو يخبر أنه سمع خطاباً ، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه .

فهذا كله موجود كثيراً ، لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان ، وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بما قاله ويعلمه من السحر ، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ، ويقول : هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومن ثم من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال : هؤلاء رجال الغيب ، وإن يسموا قالوا : هذا هو الخضر وهذا هو إلياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر ، أو الشيخ عدي ، أو الشيخ أحمد الرفاعي أو غير ذلك ، ظن أن الأمر كذلك ، فهنا لم يغلط لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء .

وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين ياتيه

في اليقظة ، ومن يرى ذلك عند قبر النبي ﷺ أو الشیخ وهو صادق في أنه ایاه من قال إنه النبي أو الشیخ أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئک ، والذی له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي ﷺ تارة لما يراه منهم من مخالفۃ الشرع ، مثل أن يأمره بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة يعلم أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لي ، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره ، وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا .

وهذا يقع كثيراً لکثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رفیقة فلان ، وقد يقولون هو معناه يشكل ، وقد يقولون روحانيته ، ومن هؤلاء من يقول: إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلني ولا فلاناً يحضرني ، فاني أنا أغسل نفسي ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويکن ذلك جنباً ، قد قال لهذا الميت : إنك تجيء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقاً، فإنه كان في حياته يقول له أموراً ، وغرض الشیطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاد المشرکین كالهند، فهذا كثيراً ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانته ، ورد وداع ، وقضى دیوناً ، ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشکون أنه الشخص نفسه ، وإنما هو شیطان تصور في صورته .

ومن هؤلاء من يکون في جنازة أبيه أو غيره والميت على سريره وهو يراه آخرداً يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيئاً بعد أبيه ، فلا يشك ابنه أن أباًه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شیطاناً ، ويکون مثل هذا الشیطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد ، وقال لهم : إنه من رجال الغیب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ويسمونه خالداً الغیبی ، وينسبون الشیخ إليه ، فيقولون : محمداً الخالدي ، ونحو ذلك .

فإن الجن مأمورون ومنهیون بالإنس ، وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّمَا يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمَكُمْ هُنَّا قَالُوا شَهَدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهَدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

[الأنعام : ١٣٠] وهذا بعد قوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ بَنَ إِلَّا نَسٍ وَقَالَ أُولَئِكُمْ هُمُ الْأَنْسٌ رَبَّنَا اسْتَمْتَعْ بَعْضُنَا بِعَضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجْلَتْ لَنَا قَالَ النَّارُ مَوْاْكِمُ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام : ١٢٨].

قال غير واحد من السلف : أي كثير من أغويتهم من الإنس وأضللتهم . قال البغوي : قال بعضهم : استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة ، وتزيينهم لهم الأمور التي يهؤنها ويسهل سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الانس لهم فيما يزينون لهم من الضلاله والمعاصي . قال محمد ابن كعب : هو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضاً .
وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري ، قال : ما كان استمتاع بعضهم بعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس .

وعن محمد بن كعب قال : هو الصحابة في الدنيا .

وقال ابن السائب : استمتاع الإنس بالجن استعادتهم بهم ، واستمتاع الجن بالانس أن قالوا : قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عادوا بنا ، فيزدادون شرفاً في أنفسهم وعظماً في نفوسهم ، وهذا كقوله : ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِ فَرَادُوهُمْ رَهْقًا﴾ [الجن : ٦].

قلت : الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به ينال به ما يطلبه ويريده وبهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم بعض ، كما قال : ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيشَةً﴾ [النساء : ٢٤] ، ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والإثاث بالإثاث .

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأنئمة الرياسة ، كما يتمتع الملوك والساسة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ، ومنه قوله : ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوْسَعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ [البقرة : ٢٣٦] . وكان من السلف من يمتع المرأة بخادمه ، ومنهم من يمتع بكسوة أو

نفقة ، ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم ، وأدنىها كسوة تجزيء فيها الصلاة .

وفي الجملة استمتاع الإنسان بالجن ، والجن بالإنس ، يشبه استمتاع الإنسان بالإنس ، قال تعالى : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُّ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال تعالى : ﴿وَتَقْطَعُتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ، قال مجاهد : هي المودات التي كانت لغير الله . وقال الخليل : ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُثُرَانًا مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِيَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] . وقال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فالمشرك يبعد ما يهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه ، وقد وقع في الإنسان والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال او قتل عدوه ، والإنسن تعطي الجن ، فتارة يسجد له ، وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهم من يريد من الإنسان الذي يخدمه ما يريد نساء الإنسان من الرجال ، وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم . فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنسان ما يناله الإنساني ، وقد يفعل ذلك بالذكران .

وصرع الجن للإنسن هو لأسباب ثلاثة : تارة يكون الجن يحب المتصروع فيصرعه ليتمتع به ، وهذا الصرع يكون أرقق من غيره وأسهل ، وتارة يكون الإنسني آذاهم إذا بال عليهم أو صب عليهم ماء حاراً أو يكون قتل بعضهم ، أو غير ذلك من أنواع الأذى ، وهذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المتصروع ، وتارة يكون بطريق العبث به كما يبعث سفهاء الإنسان بأبناء السبيل .

ومن استمتاع الإنسان بالجن استخدامهم في الأخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان ، فإن في الإنسان من له غرض في هذا لما يحصل به من الرئاسة والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب ، لم تبال بأن يقال: إنه كاهن كما كان العرب كهاناً ، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم

إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان ، فإنه لا يخدم الإنساني بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنساني بأن يطيعه الإنساني في بعض ما يريد ، إما في شرك ، وإما في فاحشة ، وإما في أكل حرام ، وإما في قتل نفس بغير حق .

فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسق والعصيان ، ولهם لذة في الشر والفتن ، يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يقولون بأمر السارق أن يسرق وينذهب إلى أهل المال ، فيقولون : فلان سرق متاعكم ، ولهذا يقال : القوة الملكية والبهيمية والسبعينية والشيطانية . فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعينية فيها الغضب ، وهو دفع المؤذى ، وأما الشيطانية فشر محسن ليس فيها جلب منفعة ، ولا دفع مضره .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقاً لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ويحب ذلك ، كما فعل إبليس بأدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود ، لكن يبغض ذلك ، وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبوه من مال وطعام وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدللونه على كنز وغيره ، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريد الشيطان من كفر وفسق ومعصية . ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلب منه الشر وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجن في صورة الإنساني ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاهم فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهاهبه : يا سيدي فلان ، فينقل الجني ذلك

الكلام الى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه ، ثم إن الشيخ يقول : نعم ، ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجنى بمثل ذلك الصوت والفعل يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه ، وهو الذي فعل ذلك ، حتى إن تابع الشيخ قد يكون يده في إناء يأكل فيضع الجنى يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام ، فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجنى يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء فيضع يده فيه ، حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجنى ، مثل للشيخ ومثل للمريد حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجنى وخيله .

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة ، وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة في النساء أو غير ذلك ، فإن الجنى قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظمًا وأراد أن يدلله على سرقته مثل له الشيخ الذي أخذ أو المكان الذي فيه المال فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه ، لأن الذي سرق المال معه أيضًا حتى يخدمه .

والجن يخاف بعضهم من بعض ، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً ، فإذا دل الجن على جاء إليه أولياء السارق فآذوه ، وأحياناً لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه ، كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق ل الكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه .

فهذا وأمثاله من استمئاع بعضهم ببعض .

والجن مكلفوں بتکلیف الإنس ، و Mohammad ﷺ مرسل إلى الثقلین الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين ، وأما مؤمنهم ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة ، وقد روی أنهم يكونون

في ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس ، عكس الحال في الدنيا ، وهو حديث رواه الطبراني في « معجمه الصغير » يحتاج النظر في إسناده^(١) ، وقد احتاج ابن أبي ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى : « وَلُكْلُ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا » [الأنعام : ١٣٢] وقد ذكر الجن والإنس الأبرار والفحار في « الأحقاف » و « الأنعام » واحتاج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى : « لَمْ يطْمَئِنْ إِنْسَانٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » [الرحمن : ٧٤] وقد قال تعالى في الأحقاف : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَّمٍ قَدْ جَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلُكْلُ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا » [الأحقاف : ١٨ - ١٩] وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة و قوله : « أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَّقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَّجَاوِزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ » [الأحقاف : ١٦] ثم قال : « وَلُكْلُ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلَيُوَفِّيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » [الأحقاف : ١٩] .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علوًا ودرجات أهل النار تذهب سفلًا ، وقد قال تعالى عن قول الجن : « وَأَنَا مِنَ الصَّالِحُونَ وَمِنَ دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا » [الجن : ١١] ، وقالوا : « وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَ الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحْرُرُوا رَشَدًا * ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَابًا » [الجن : ١٤ - ١٥] ، ففيهم الكفار والفساق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين نوع من قلة العلم ، كما في الإنس ، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق ، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء ، منهم من يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم ، وقد يظلون ذلك من كرامات الصالحين ، وإنما هو من أفعال الشياطين ، ومنهم من

(١) لم أجده ،

يستخدمهم في أمور مباحة ، إما إحضار ماله ، أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم ، أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستغاثة الإنسان بعضهم بعض في ذلك .

والنوع الثالث أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله كما يستعمل الإنسان في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله ، كما يأمر الإنسان وينهاهم ، وهذه حال نبينا ﷺ وحال من اتبعه واقتدى به من أمهه وهم أفضل الخلق ، فإنهم يأمرؤن الإنسان والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الإنسان والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله ، إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً بذلك إلى الشقين الإنس والجن^(١) وقد قال الله له : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِنَصْرَكُمْ » [يوسف : ١٠٨] وقال : « قُلْ إِنَّ كُنْتُمْ تُحْبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » [آل عمران : ٣١] .

وعمر رضي الله عنه لما نادى : يا سارية الجبل^(٢) قال : إن الله جنوداً يبلغون صوتي - وجند الله هم من الملائكة ومن صالح الجن - ، فجند الله بلغوا صوت عمر إلى سارية ، وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر ، وإن نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة بعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه ، فيقول : يا فلان ، فيعلن على ذلك ، فيقول الواسطة بينهما : يا فلان وقد يقول لمن هو بعيد .

(١) يؤيد هذا ما ورد في سورة الأنعام آية ١٣٠ من قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا .. » ، والأمر على التقليب ، إذ الرسل من الإنس فقط .

(٢) حديث سارية هذا أخرجه الواقدي عن عمر رضي الله عنه ، والبيهقي في « الدلائل » واللالطائي في « شرح السنة » وابن الأعرابي في « كرامات الأولياء » عن ابن عمر رضي الله عنهم . قال ابن حجر في « الاصابة » : إسناده حسن .

وسارية هو : سارية بن زئيم بن عبد الله بن جابر بن سحيمة بن عبيد بن عدي التؤلي ، له صحبة ، وولاه عمر رضي الله عنه ناحية فارس سنة ٢٣ هـ ، فوقع في خاطر عمر رضي الله عنه وهو يخطب يوم الجمعة أن جيش سارية لاقى العدو لهم في بطن واد ، وقد هموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل ، فقال في أثناء خطبه : يا سارية الجبل الجبل ، ورفع صوته فاللقاء الله في سمع سارية ، فانحاز الناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، وفتح الله عليهم .

عنه : يا فلان احبس الماء تعال إلينا ، وهو لا يسمع صوته فيناديه الواسطة بممثل ذلك : يا فلان احبس الماء ارسل الماء ، إما بممثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته ، وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه ، وهذه حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاءه شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر ، فقال عمر : من أين لكم هذا ؟ قالوا : شخص صفتة كيت وكيت فأخبرنا فقال عمر : ذاك أبو الهيثم يريد الجن ، وسيجيء ، يريد الإنسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه ، فيخرج فيرى الناس يتحدثون به ، فإن الجن تسمعه وتخبر به الناس ، والذين يستخدمون الجن في المباحثات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطي ملكاً لا ينبغي لأحد بعده ، وسخرت له الإنس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره .

والنبي ﷺ لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته ، قال : « فأخذته فذعْتُه حتى سال لعابه على يدي ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ، ثم ذكرت دعوة أخي سليمان فأرسلته »^(١) فلم يستخدم الجن أصلاً ، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم الرسالة ، وبايعهم كما فعل بالإنس .

والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولًا على أن يكوننبياً ملكاً ، فدأد وسلامان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسول عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين .

وكثير من يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء ، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة ،

(١) رواه البخاري ٤٦١/١ في المساجد : باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد ، وفي العمل في الصلاة : باب ما يجوز من العمل في الصلاة ، وفي بدء الخلق : باب صفة إبليس وجنوده ، وفي الأنبياء : باب قول الله تعالى : « ووهبنا لداؤد سليمان » وفي تفسير سورة ص ، ومسلم رقم (٥٤١) في المساجد : باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعمود منه ، وأحمد في « المستند » ٢/٢٩٨ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحره والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين في الإسلام جعلوا الخوارق جنساً واحداً ، وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا افترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدي بمثلها .

وإذا أدعى النبوة من ليسبني من الكفار والسحرة فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك ، وأن يقيض له من يعارضه، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله ، فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي مما لم يكن معتاداً للناس ، قالوا: إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة ، فهذه هي المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذي قالوا : المعجزات هي خرق العادة ، لكن أنكروا كرامات الصالحين، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعبدة والجحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك ، وأولئك أثبتوا الكرامات ، ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي ، قالوا: فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحًا بهذا الإجماع ، وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها تكون للسحر ما هو منها ويناقضوا في ذلك ، كما قد بسط في غير هذا الموضوع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحره والكهان وما يفعله الشياطين من العجائب ، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة، فيقوى قلبه بأن طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ، ثم يقولون: الولي إذا تولى لا يعرض عليه ، فمنهم من يراه مخالفًا لما علم بالاضطرار من دين الرسول، مثل ترك الصلاة المفروضة ، وأكل الخبائث كالخمر والحسيشة والميتة وغير ذلك ، و فعل الفواحش والفحش والتفحش في المنطق ، وظلم الناس وقتل النفس بغير حق والشرك بالله ، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولی من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين يصل به الناس ويغويهم .

ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق ، وأنا أتوبك لي وأصير شيخك ، وأنت تتوب الناس لي ويلبسه ، فيصبح على رأسه ما ألبسه ، فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول : أنا الشيخ فلان ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت فيأتونه في صورة ذلك الشيخ ، وقد يخلصونه مما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أصلته الشياطين ، والملائكة لا تجib مشركاً ، وتارة يأتون إلى من هو حال في البرية وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطفش وخاف الموت ، فيأتيه في صورة انسى ويسقيه ، ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه ، فيسلم على يديه ويتوبه ويطعمه ويدله على الطريق ، ويقول : من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون من مؤمني الجن (*).

كما جرى مثل هذا لي كنت في مصر في قلعتها ، وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص : أنا ابن تيمية ، فلم يشك ذلك الأمير أنني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردین ، وأرسل بذلك ملك ماردین إلى ملك مصر رسولًا ، وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم اخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنباً يحبنا فيصنع بالترك التر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاؤوا إلى دمشق ، كنت أدعوهם إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعthem ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك اكرامي ليظن ذلك أنني أنا الذي فعلت ذلك .

قال لي طائفة من الناس : فلم لا يجوز أن يكون ملكاً ؟ ! قلت : لا ، إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال : أنا ابن تيمية ، وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

(1) في المطبوع : ويكون في موضع ، والتصحيح من نسخة « مجموع فتاوىشيخ الإسلام » .

وكثير من الناس رأى من قال : إنني أنا الخضر ، وإنما كان جنِيَاً ، ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات انكاراً لها لموت الخضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكلا الطائفتين مخطيء ، فإن الذين رأوا من قال : إنني أنا الخضر ، هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات لكن أخطأوا في ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنِيَاً . ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتיהם في كنائسهم من يقول : إنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتיהם في كنائسهم من يقول : إنه الخضر وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبيّن صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر وأنه غلط في ظنه وأنه الخضر وإنما كان جنِيَاً .

وقد يقول : أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ،
فكل هذا قد وقع والنبي ﷺ قال : « من رأني في المنام فقد رأني حقاً ، فإن الشيطان
لا يتمثل في صورتي »^(١) قال ابن عباس : في صورته التي كان عليها في حياته ، وهذه
رؤيه في المنام ، وأما في اليقظة فمن ظن ان أحداً من الموتى يجيء بنفسه للناس
عياناً قبل يوم القيمة فمن جهله أتي .

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم ، وهذا مذكور في أناجيلهم ، وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كان شيطاناً قال : أنا المسيح ، ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه فلا حاجة إلى مجئه بعد أن رفع إلى السماء .

وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول : أنا الحلاج ، فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له : الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه

(١) رواه البخاري ٣٣٨ / ١٢ في التعبير : باب من رأى النبي ﷺ في المنام ، ومسلم رقم (٢٢٦٦) في الرؤيا :
باب قول النبي ﷺ « من رأني في المنام فقد رأني ، وأبى داود رقم (٥٠٢٣) في الأدب : باب في الرؤيا ، وأحمد في
« المسند » ٢/٢٢٦ و ٢٣٢ و ٢٦١ ، و ٣٤٢ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤٥٥ و ٤٦٣ و ٤٦٩ و ٤٧٢ و ٤٧٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي
الباب عن أنس و ابن مسعود وجابر وأبي سعيد . انظر « جامع الأصول » رقم (٩٩٤) و (١٠٠٧) و (١٠٠٨) و (١٠٠٩) .

من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله ، فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن ، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي ، وكان يقول ، انتقل ، ثم مات ، وكذلك شيخ آخر كان بالشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل : كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو .

وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية ، قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته ، وكذا متظر الراضفة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنباً ، فهذا باب واسع واقع كثيراً ، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ، ففي المشركين أكثر مما في النصارى ، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام ، وهذه الأمور يسلم بسيبها ناس ويتوه بسيبها ناس ، يكونون أصل من أصحابها ، فينتقلون بسيبها إلى ما هو خير مما كان عليه ، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس ، قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً ، وقد قال النبي ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »^(١) [وفي رواية] « وبأقوام لا خلاق لهم »^(٢) .

وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي ، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق ، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات فيتفق بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه .

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الراضفة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك ، وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم في المسلمين

(١) رواه البخاري ١٢٥ / ٦ في الجهاد : باب ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وفي المعاذري : باب غزوة خير ، ومسلم رقم (١١١) في الإيمان : باب غلط تحرير قتل الإنسان نفسه ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٣٠٩ والدارمي رقم (٢٥٢٠) في السير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » رقم (١٦٠٦) « موارد » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٤٥ / ٥ ، والطبراني في « الكبير » من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

والكفار ويكون آثماً بذلك . ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذلك كان شرّاً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير .

وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذلك ، وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا سلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه ، وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدایته أدخل الإيمان في قلبه .

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان ، ﴿ وَلِكُلِّ ذَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفَيُهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وأكثر المتكلمين يردون باطلًا بباطل وببدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بذلة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخارج ، فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعه وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلكالمعروف عنهم أنهم يتولون علياً ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر ، ولكن حكي عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ولا أعلم عينها ، وقالوا : إنه قال لو شهد علي والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا عينه ، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان ، وهذا القول شاذ فيهم ، والذي عليه عامتهم تعظيم علي .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبي موسى وعمرو بن العاص لأجل علي ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم ، بخلاف طلحة والزبير وعائشة فإنهم يقولون : إن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ، ويعظمون الذنوب ، فهم

يتحرون الصدق كالخوارج ، لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الاسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محسنات كثيرة يترجحون على الخوارج والرافضة ، وهم قصدتهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ، لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس ، فجعلوا من التوحيد نفي الصفات وإنكار الرؤية والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا في ذلك الجهمية ، وجعلوا من العدل أنه لا يشاء ما يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد فنفوا قدرته ومشيئته وخلقهم لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة .

وكذلك هم والخوارج قالوا بإنفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب ، إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمتي لم يقل بذلك لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك الأمر بالمعرفة والنفي عن المنكر بالسيف قصدوا به طاعة الله ورسوله ، كما يقصده الخوارج والزیدية ، فغلطوا في ذلك ، وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة ونصرها ، وغلطوا فيما سلكوه فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء .

والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ، وبينوا ما بينوه من تناقضهم ، وعظموا الحديث والسنّة ومذهب الجماعة ، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم ، وأما ما بقي عليه من السنّة فليس هو من خصائص المعتزلة ، بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية ، وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيء منها بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه .

وكثر من الطوائف كالنجرانية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، يخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق والصوفية يذمونها ويعيّنونها ، وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود ، هم الى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر وبلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين ، وروى بإسناده عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق ، الضالين : وهم النصارى الذين أضلهم الله بغيرتهم عليه يقول : فالهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ، ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم ، يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك .

قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا فيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه وهو الدليل والسلوك في طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمرشد وطريق أهل الإرادة ، فهو لاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر ، وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة وعظموا جنس النظر ولم يتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة

لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعي الباطل المنهي عنه .

وكذلك الصوفية عظموا جنس الإرادة ، إرادة القلب وذموا الهوى ، وبالغوا في الباب ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية ، بل أقبلوا على طريق الإرادة ، طريق النظر ، وأعرض كثير منهم عن طريق النظر فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ولهذا صار هؤلاء يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم ، وأولئك يميل إليهم اليهود ويميلون إليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التناحر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأي وبين أهل التصوف والزهد تناحر وتباغض . هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

نَسَأَ اللَّهُ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِنَا وَسَائِرَ إِخْوَانَنَا الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صَرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غَيْرَ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ، آمِينَ .

فصل

فإن قيل : فإذا كان في كتب الأنجليل التي عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصليب بأيام أتى إليهم ، وقال لهم : أنا المسيح ولا يقولون إن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعزم ، وهذه أثر المسامير أو نحو هذا الكلام ، فأين الإنجيل الذي قال الله عز وجل فيه : **(وَلَيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ)** [المائدة : ٤٧] وقال قبل هذا **(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التُّورَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىٰ وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التُّورَةِ وَهُدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** [المائدة : ٤٦ - ٤٧] وقد قال قبل هذا **(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التُّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ *** إِنَّا أَنْزَلْنَا التُّورَةَ فِيهَا هُدَىٰ وَنُورٌ يَحْكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ

وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءِ ﴿الْمَائِدَةُ: ٤٣-٤٤﴾ [وقال أيضًا : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة : ٦٦] . وقال أيضًا : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقْسِمُوا التُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدُنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَىٰ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة : ٦٨] .

وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم وهو من كان في وقته ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيمة ، لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم ، وكذلك قوله : ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدُهُمُ التُّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ إخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله وكذلك قوله : ﴿وَلَيُحَكِّمُ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة : ٤٧] هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الإنجيل ومن لا يؤمر على لسان محمد ﷺ .

قيل قبل هذا : إنه قد قيل ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، بل ذلك مبدل ، فإن التوراة انقطع تواتره ، والإنجيل إنما أخذت عن أربعة ، ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة أو الإنجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال : بل ذلك قليل . وقيل : لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب ، وإنما حرفوا معانيها بالتأويل ، وهذا القول قال كلاً منها كثيراً من المسلمين ، والصحيح القول الثالث وهو أن في الأرض نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبي ﷺ ونسخاً كثيرة محرفة . ومن قال : إنه لم يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه ، ومن قال : جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت ، فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ويخبر أن فيما حكمه وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ .

وإذا كان كذلك فنقول هو سبحانه قال : ﴿وَلَيُحَكِّمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة : ٤٧] وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح ، فأما حكاياته لحاله بعد أن

رفع فهو مثلها في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله وما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو ما كتبوه مع ذلك للتعریف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمر به في حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقْبِلُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة : ٦٨] قوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِّنْ رَبِّهِمْ لَأَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] فإن إقامة الكتاب والعمل بما أمر الله به في الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول ، وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك، ليس هو مما أنزله الله على الرسول، ولا مما أمر به ولا أخبر به ، وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة يصنف الشخص كتاباً فيذكر ناسخه في آخره عمر المصنف ونسبة وسنة ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن ، وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميص والتشير ، ولا آمين ، ولا غير ذلك ، والمصاحف القديمة والتي كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفي المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور والتخميص والتشير والوقف والابداء ، وكتب في آخر المصحف تصديقه ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن .

فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ليس هو ما قاله المسيح ، وإنما هو ما رأه من بعده ، والذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله .

فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الانجيل والدين فقد دخلت الشبهة .

قيل : الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن

الأئمَّاء ، فإنَّ الحجة في كلام الأنبياء وما سوى ذلك فموقوف على الحجة إنْ كان حقاً قُبِّل ، وإلاَّ رُدّ ، ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله لا سيما المتأتِّر كالقرآن وكثير من السنن ، وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم ، وما تنازعوا فيه رد إلى الله والرسول ، وعمر رضي الله عنه قد كان أولاً أنكر موت النبي ﷺ حتى رد ذلك عليه أبو بكر رضي الله عنه ، وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر رضي الله عنه بالحديث الذي رواه ، وتنازعوا في تجهيز جيش اسامة ، وتنازعوا في قتال مانعي الزكاة ، فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي ﷺ .

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ، ولم يشهد أحد منهم صلبه ، فإنَّ الذي صلب إنما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً ، وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح ، وقد قيل : إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ، ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس ، والأول هو المشهور وعليه جمهور الناس . وحينئذ فليس عند النصارى خبر عنمن يصدقونه بأنه صلب ، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام ، وقال : أنا المسيح وذاك شيطان ، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تجيء ويدعى أنه نبي أو صالح ، ويقول : أنا فلان النبي أو الصالح ، ويكون شيطاناً ، وفي ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذي جاءه جاء ، وقال : أنا المسيح ، جئت لأهدبك ، فعرف أنه الشيطان ، فقال : أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها ، فإنْ جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند النصارى واليهود علم بأنَّ المسيح صلب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧] ، وأضاف الخبر عن قتلته إلى اليهود بقوله : ﴿ وَقُولُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٧] فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ، ومن جوز قتلها كمن قتلها ، فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون ، وإذا قالوه فخرأً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوا ، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعدهم فيه ، وقد قال النبي ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما

فالقاتل والمقتول في النار » ، قالوا : يا رسول الله فما بال المقتول ؟ ! قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »^(١) .

وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍ مِّنْهُ » قيل : هم اليهود ، وقيل : النصارى ، والآية تعم الطائفتين . وقوله : « لَفِي شَكٍ مِّنْهُ » قيل : من قتله ، وقيل : منه أي في شك منه هل صلب أم لا ، كما اختلفوا فيه ، فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : إنه إله ، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ، وهم في شك من ذلك ما لهم به من علم .

إذا كان هذا في الصلب فكيف في الذي جاء بعد الرفع وقال : إنه هو المسيح .

فإن قيل : إن كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا في إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم : « وَجَاعَلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا » [آل عمران : ٥٥] ، وقوله : « فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا طَاهِرِينَ » [الصف : ٤] .

قيل : ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح ، بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلمة ألقها إلى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح في إيمانه ، فإن هذا اعتقاد مorte على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلاً له ، وقتل النبي لا يقدح في نبوته، وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء ، وقال تعالى : « وَكَائِنٌ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِيعُونَ كَثِيرٌ » الآية [آل عمران : ١٤٦] وقال تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » [آل عمران : ١٤٤] وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع ، وكلفهم هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي

(١) رواه البخاري ٨١/١ في الإيمان : باب « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما » وفي الديات : باب قول الله تعالى : « ومن أحياها » وفي الفتنة : باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، ومسلم رقم (٢٨٨٨) في الفتنة : باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، وأبو داود رقم (٤٢٦٨) في الفتنة : باب النبي عن القتال في الفتنة ، والنسائي ١٢٥/٧ في تحريم الدم : باب تحريم القتل ، وابن ماجة رقم (٣٩٨٠) في الفتنة : باب العزلة ، وأحمد في « المستند » ٤٣/٥ و ٤٧ و ٥١ من حدث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه .

جاءهم في اليقظة ، فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة ، واتبعاً لها وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره ، فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهما عن الإيمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه .

وعمر رضي الله عنه لما كان يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ، لم يكن هذا قادحاً في إيمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

فصل

وقوله تعالى في هذه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظَّنِّ﴾ [النساء : ١٥٧] هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم ، وكذلك قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهَدَى﴾ [النجم : ٢٣] ، وكذلك قوله : ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [النجم : ٢٨] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يومن : ٦٦] ، وقوله : ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمْنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا أَكْمُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثُرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يومن : ٣٥ - ٣٦] .

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن ، وكذلك قوله : ﴿قُلْ هَلْ عِنْدُكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلَلَّهِ الْحَجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام : ١٤٨ - ١٤٩] مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم ، وكذلك قوله : ﴿نَبَؤْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٣] وقوله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضْلُلُونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١١٩] وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم وعمل بالظن .

وقد ثبت في السنة المتوترة واجماع الأمة أن الحاكم يحكم بشاهدين وإن لم

يُكَفَّرُ أَنْهَا قَالَ : « إِنَّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحُنْ بِحْجَتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعَ ، فَمَنْ قُضِيَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذُهُ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قَطْعَةً مِنَ النَّارِ »^(١) .

والاجتهاد في تحقيق المناط مما اتفق المسلمين عليه، ولا بد منه كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباہ ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان ، بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لا بد فيها من هذا ، فإن دلالة العموم في الظواهر قد تكون محتملة للنقض ، وكذلك خبر الواحد والقياس ، وإن كان قوم نازعوا في القياس ، فالفقهاء منهم لم ينazuوا في خبر الواحد كالظاهيرية ، ومن نازع في هذا وهذا لم ينazu في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع بعض الرافضة ، مثل الموسوي ونحوه لم ينazu في الأخبار ، فإن الإمامية عمدوهم على ما نقل عن الاثني عشر ، فلا بد لهم من الرواية ، ولا يوجد من يستغني عن الظواهر والأخبار والأقوية ، بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقشه ، وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن .

وقد تنوّعت طرق الناس في جوار هذا ، فطائفة قالت : لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلًا ، وقالوا : إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون في الظواهر ، بل يقولون : نقطع بخطأ من خالفنا وننقض حكمه ، كما يقوله داود وأصحابه ، وهؤلاء عمدوهم إنما هو ما يظلونه ظاهراً .

(١) رواه البخاري ٢١٢/٥ في الشهادات : باب من أقام البيبة بعد اليدين ، وفي المظالم : باب إثم من خاصم في الباطل وهو يعلم ، وفي الحيل : باب إذا غضب جاريته فرعم أنها ماتت فقضى بقيمة الجارية الميتة ثم وجد صاحبها فهي له ، وفي الأحكام : باب موعظة الإمام للخصوم وباب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذنه ، وباب القضاء في كثير المال وقليله ، ومسلم رقم (١٧١٣) في الأقضية : باب الحكم بالظاهر واللحن بالحججة و« الموطأ » ٧١٩/٢ في الأقضية : باب الترغيب في القضاء بالحق ، وأبو داود رقم (٣٥٨٣) و (٣٥٨٤) في الأقضية : باب في قضاء القاضي إذا أخطأ ، والترمذى رقم (١٣٣٩) في الأحكام : باب ما جاء في التشديد على من يقضى له ؛ والنمسائي ٢٣٣/٨ في القضاء : باب الحكم بالظاهر ، وأحمد في « المستد » ٦/٢٠٣ و ٢٩٠ و ٣٠٨ و ٣٢٠ من حدث أم سلمة رضي الله عنها .

وأما الاستصحاب ، والاستصحاب في كثير من الموضع من أضعف الأدلة وهم في كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ ، بل الظاهر خلافه ، فطائفة قالت : لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبين للعلم ، فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم لا نعمل بالظن ، وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأتباعه .

وهنا السؤال المشهور في حد الفقه أنه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازمي : العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة ،

قال : فإن قلت : الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً ؟

قلت : المجتهد إذا غالب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم ، قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعاً ، والظن واقع في طريقه .

وحقيقة هذا الجواب أن هنا مقدمتين : أحدهما أنه قد حصل عندي ظن ، والثانية قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن ، فالمقدمة الأولى وجданية ، والثانية عملية استدلالية ، فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمنه بعضهم ، لكن يقال : العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه ، بل الفقه هو ذلك الظن الحاصل بالظاهر ، وخبر الواحد والقياس والأصول يفيد أن العمل بهذا الظن واجب ، وإنما فالفقهاء لا يتعرضون لهذا ، فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه .

وهذا الجواب جواب القاضي أبي بكر ، وهو بناء على أصله ، فإنه عنده كل مجتهد مصيب ، وليس في نفس الأمر أمر مطلوب ، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ، بل الظنون عنده بحسب الاتفاق .

وقال الغزالى وغيره من نصر قوله : قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر ، كمثل ذي الشدة إلى قول ، وذى اللين إلى قول ، وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظناً في نفسه ، فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن .

وقد أنكر أبو المعالي وغيره عليه هذا القول انكاراً بلغاً ، وهم معدورون في انكاره ، فإن هذا أولاً مكابرة ، فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن ، وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشريعة جاءت به ورجحت شيئاً على شيء .

والكلام في شيئاً : في اتباع الظن ، وفي الفقه هل هو من الظنون :
أما الأول فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم ، وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به . وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده، لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان ، فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح ، وفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد .
وأما اعتقاد الرجحان ، فقد يكون علمًا ، وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان ، وإذا ظن الرجحان أيضاً ، فلا بد أن يطنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ، ورجحان هذا غير معلوم ، فلأن ينتهي الأمر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متبعاً لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن ، وهو اتباع الأحسن كما قال :
﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمِرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف : ١٤٥] وقال :
﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر : ١٨] ، وقال :
﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [الزمر : ٥٥] ، فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن ، وهذا معلوم .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم ، وهذا جواب الحسن البصري وأبي وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه إلى علم ، فإن هذا أرجح من غيره كما قال :
﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَبَعُونَ إِلاَ الظَّنَ﴾ [النجم : ٢٨] ، وقال :
﴿هَلْ عَنْدُكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَبَعُونَ إِلَّا الظَّنَ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وهكذا في سائر الموضعين الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد

لا علم معه وهم يتبعونه ،والذى جاءت بهالشريعة وعليه عقلاً الناس أنهم لا يعلمون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا ، فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً ، لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الأمر ، وهذا كما ذكر النبي ﷺ حيث قال : « ولعل بعضكم أن يكون أحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو مما أسمع » ^(١) .

فإذا أتى أحد الخصمين بحججة مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح فما حكم إلا بعلم ، لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أن يبينها ، مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أو لا يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك، فيكون هو المضيع بحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل، وضياع حق هذا كان من عجزه وتفرطيه، لا من الحاكم .

وهكذا أدلة الأحكام ، فإذا تعارض خبران أحدهما مسند ثابت والآخر مرسى ، كان المسند الثابت أقوى من المرسى ، وهذا معلوم ، لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه ، كشاهدين زكي أحدهما ولم يزك الآخر ، فهذا المزكي أرجح وإن جاز أن يكون في نفس الأمر قول الآخر هو الحق ، لكن المجتهد إنما عمل بعلم وهو علمه برجحان هذا على هذا ، ليس من لم يتبع إلا الطعن ، ولم يكن تبيان له إلا بعد الاجتهد التام فيمن أرسل ذلك الحديث وفي تزكية هذا الشاهد ، فإن المرسى قد يكون راويه عدلاً حافظاً ، كما قد يكون هذا الشاهد عدلاً ، ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوی ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهم ، وقد لا يعلم عدالتهم مع تقويتها ورجحانها في نفس الأمر .

فمن هنا يقع الخطأ في الاجتهد ، لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكانه ثبوته في نفس الأمر ، فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته ، وإن لم يعلم انتفاءه من جهة ، فإنهما إذا تارضاً وكانا متناقضين فإثبات أحدهما هو نفي الآخر ،

(١) تقدم تخریجه قبل قليل ص ٧٣ .

فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفي ذلك، وذلك المجهول بالعكس ، فإذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيع المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته .

ولكن قد يقال : إنه لا يقطع ثبوته ، وقد قلنا فرق بين اعتقاده الرجحان ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم ، والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا .

وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن ، لكن لم يكن من قال الله فيه ﴿إِنَّ يَتَبَعُونَ إِلَى الظَّنِ﴾ ، بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك ، وهذا الظن هو الراجح ورجحانه معلوم ، فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد في جميع العلوم والصناعات كالطب والتجارة وغير ذلك .

وأما الجواب عن قولهم : الفقه من باب الظنون ، فقد أجاب طائفه منهم أبو الخطاب بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر، وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [المتحنة : ١٠] .

والتحقيق أن عنه جوابين :

أحدهما : أن يقال جمهور مسائل الفقه التي يحتاج إليها الناس ويفتون بها هي ثابتة بالنص أو الاجماع ، وإنما يقع الظن والتزاع في قليل مما يحتاج إليه الناس ، وهذا موجود فيسائر العلوم ، وكثير مسائل الخلاف هي في أمور قليلة الواقع ومقدرة ، وأما ما لا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويرحم وبيان ، فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه ، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احتزز بهذا القيد أحد إلا الرازبي ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون في كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة والحج واستقبال القبلة ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة وتحريم الخمر والفواحش وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

وأيضاً تكون الشيء معلوماً من الدين ضرورة أمر إضافي ، ف الحديث العهد

بالاسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلاً عن كونه يعلم بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد للسهو وقضى بالدية على العاقلة ، وقضى أن الولد للفراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه أليته .

الجواب الثاني : أن يقال : الفقه لا يكون فقهًا إلا من المجتهد المستدل ، وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح ، فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل ، وهذا الظن ليس الفقه قطعه بوجوب العمل ، أي بما أدى إليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولي يتكلم في جنس الأدلة ويتكلم كلاماً كلياً ، فيقول : يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ، ويقول أيضاً : إذا تعارض العام والخاص ، فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسلا فالمسند أرجح ، ويقول أيضاً : العام المجرد عن قرائن التخصص شموله الأفراد أرجح من عدم شموله ، ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه فيتكلم في دليل معين في حكم معين ، مثل أن يقول قوله : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » [المائدة : ٥] خاص في أهل الكتاب ومتاخر عن قوله « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ » [البقرة : ٢٢١] ، وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب ، وإن تناولتهم فهذا خاص متاخر فيكون ناسخاً ومختصاً ، فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحرير ، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً ، وهذا الفقه الذي يختص به الفقيه وهو علم قطعي لا ظني ، ومن لم يعلم كان مقلداً للأئمة الأربعـة ، والجمهور الذين جوزوا نكاح الكتابيات واعتقاد المقلد ليس بفقه ، ولهذا قال المستدل على أعيانها: والفقـيـه قد استدل على عـينـ الحـكمـ المـطلـوبـ والمـسـؤـولـ عـنـهـ ، وحيـثـ لاـ يـعـلمـ الرـجـحانـ فـهـ مـتـوقـفـ لاـ قـولـ لـهـ ،

وإذ قيل له : فقد قال « وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ » [المتحنة : ١٠] .

قال : هذا نزل عام الحديبية والمراد به المشركـات ، فإن سبب التزول يدل على أنهن مرادـات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك ، فهي خاصـ متـأخر ، وذاك عام متقدم ، والخاصـ المتـأخر أرجـح من العام المتـقدم ، ولهذا لما نـزل قوله ، ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصْمَ الْكَوَافِر﴾ [المـمـتحـنة : ١٠] ، فـارـق عمر امرأـة مـشـركـة وكذلك غيره ، فـدلـ علىـ أنـهم كانوا يـنكـحـونـ المـشـركـاتـ إلىـ حـينـ نـزـولـ هـذـهـ الآـيـةـ ، ولوـ كانـتـ آـيـةـ الـبـقـرةـ قدـ نـزـلتـ قـبـلـ هـذـهـ لـمـ يـكـنـ كـذـلـكـ ، فـدلـ علىـ أنـ آـيـةـ الـبـقـرةـ بـعـدـ آـيـةـ الـمـمـتحـنةـ آـيـةـ الـمـائـدةـ بـعـدـ آـيـةـ الـبـقـرةـ ، بـهـذـاـ النـظـرـ وـأـمـالـهـ هـوـ نـظـرـ الـفـقـيـهـ الـعـالـمـ بـرـجـحـانـ دـلـيلـ وـظـنـ عـلـىـ دـلـيلـ ، وـهـذـاـ عـلـمـ لـاـ ظـنـ .

فقد تـبـيـنـ أـنـ الـظـنـ لـهـ أـدـلـةـ تـقـضـيهـ ، وـأـنـ الـعـالـمـ إـنـمـاـ يـعـلـمـ بـمـاـ يـوـجـبـ الـعـلـمـ بـالـرـجـحـانـ لـاـ بـنـفـسـ الـظـنـ إـلـاـ إـذـاـ عـلـمـ رـجـحـانـهـ ، وـأـمـاـ الـظـنـ لـذـكـرـهـ لـاـ يـعـلـمـ رـجـحـانـهـ فـلاـ يـجـوزـ اـتـبـاعـهـ ، وـذـكـرـهـ ذـمـ اللـهـ بـهـ مـنـ قـالـ فـيـهـ : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلـاـ الـظـنـ﴾ [الـنـجـمـ : ٢٣] فـهـمـ لـاـ يـتـبـعـونـ إـلـاـ الـظـنـ لـيـسـ عـنـهـمـ عـلـمـ ، ولوـ كـانـوـ عـالـمـينـ بـأـنـهـ ظـنـ رـاجـحـ لـكـانـوـاـ قـدـ اـتـبـاعـواـ عـلـمـاـ ، لـمـ يـكـونـوـ مـنـ لـمـ يـتـبـعـ إـلـاـ الـظـنـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

فصل

فـهـاـ هـنـاـ ثـلـاثـةـ أـشـيـاءـ :

اـحـدـهـ : الـظـنـ الـرـاجـحـ فـيـ نـفـسـ الـمـسـتـدـلـ الـمـجـتـهدـ .
وـالـثـانـيـ الـأـدـلـةـ الـتـيـ يـسـمـيـهاـ بـعـضـ الـمـتـكـلـمـينـ أـمـارـاتـ الـتـيـ تـعـارـضـتـ ، وـعـلـمـ الـمـسـتـدـلـ بـأـنـ الـتـيـ أـوجـبـتـ ذـلـكـ الـظـنـ أـقـوىـ مـنـ غـيرـهـ .

الـثـالـثـ : أـنـهـ قـدـ يـكـونـ فـيـ نـفـسـ الـأـمـرـ دـلـيلـ آـخـرـ عـلـىـ القـوـلـ آـخـرـ لـمـ يـعـلـمـ بـهـ الـمـسـتـدـلـ ، وـهـذـاـ هوـ الـوـاقـعـ فـيـ عـامـةـ مـوـارـدـ الـاجـتـهـادـ ، فـإـنـ الرـجـلـ قـدـ يـسـمـعـ نـصـاـ عـامـاـ ، كـمـاـ سـمـعـ اـبـنـ عـمـ وـغـيرـهـ أـنـ النـبـيـ ﷺـ نـهـىـ عـنـ قـطـعـ الـخـفـينـ ، وـأـنـهـ أـمـرـ أـنـ لـاـ يـخـرـجـ أـحـدـ حـتـىـ يـوـدـعـ الـبـيـتـ ، أـوـ أـنـ النـبـيـ ﷺـ نـهـىـ عـنـ لـبـسـ الـحـرـيرـ وـظـاهـرـهـ الـعـومـ ، وـهـذـاـ رـاجـحـ عـلـىـ الـاسـتصـحـابـ النـافـيـ لـلـتـحرـيمـ . فـعـمـلـوـاـ بـهـذـاـ الـرـاجـحـ وـهـمـ يـعـلـمـوـنـ قـطـعاـ أـنـ الـنـهـىـ أـولـىـ مـنـ الـاسـتصـحـابـ .

لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ، ولكن لما يعلمه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه ، فكانتا يفتون بأن الحائض عليها الوداع وعليها قطع الخفين ، وأن قليل الحرير وكثيره حرام ، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء لعموم قوله : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »^(١) وكان في نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي ﷺ رخص للحائض أن تنفر بلا وداع ، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهي عنه المحرم ، ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص في موضع أصعبين أو ثلث أو أربعة من الحرير كما بين ذلك في « الصحيح »^(٢) في رواية عمر ، ولم يعرف به ابنه عبد الله وكان له جبة مكفوفة بالحرير ، فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا وعلموا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبوه ولم يعلموا به ، وهم في الحالين إنما حكموا بعلم ، لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن فإنهم أولاً رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم ، فإن هذا راجح بلا ريب ، والشرع طافح بهذا .

فما أوجبه الله أو حرمه في كتابه كاللوضوء والصلوة والحج وغيرهما نصوص عامة ، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة ، هي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجح ذلك فقد حكم بعلم وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ، ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجوizه أن يكون النص مخصوصاً صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم ، وكذلك لو علم إرادة نوع قطع باتفاقه الشخصوص .

(١) رواه البخاري ٢٤٢/١٠ في اللباس : باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه ، ومسلم رقم (٢٠٧٣) في اللباس والزينة : باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ورواه البخاري ٢٤٣/١٠ ومسلم رقم (٢٠٦٩) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومسلم رقم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، ورواه البخاري ٢٤٣/١٠ من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري ١٠ / في اللباس : باب الحرير وافتراضه للرجال وقدر ما يجوز منه ، ومسلم رقم (٢٠٦٩) (٤) في اللباس : باب تحريم استعمال إناء الذهب .. الخ والسائبان ٢٠٢/٨ في الزينة : باب الرخصة في لبس الحرير ، وابن ماجه رقم (٣٥٩٣) في اللباس : باب الرخصة في العلم في الثوب من حديث عمر رضي الله عنه .

وهذا القول في سائر الأدلة مثل أن يتمسك بنصوص وتكون منسوبة ولم يبلغه الناسخ، كالذين نهوا عن الانتباذ في الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ ، وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ مثل من كان من المسلمين بالبادى ومكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة وصلى بعضهم صلاة إلى القبلتين بعضها إلى هذه القبلة وبعضها إلى هذه القبلة لما بلغهم النسخ وهم في أثناء الصلاة ، فاستداروا في صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون في الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه يقولون ما ثم إلا الظن الذي في نفس المجتهد والأمارات لا ضابط لها ، وليست أمارة أقوى من أمارة ، فانهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئاً ، وعندهم ليس في نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعه والجمهور فيقولون: بل الأمارات بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر ، وعلى الانسان أن يجتهد ويطلب الأقوى ، فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ﴿وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسُعْهَا﴾، وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطئه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤخذ برتكه .

فإذا أريد بالخطأ الإثم فليس المجتهد بمخطيء ، بل كل مجتهد مصيب مطبع فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر فال慈悲 واحد قوله أجران ، كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذى أصاب الكعبة واحد قوله أجران لاجتهاده ، وعمله كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده أجرًا بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : ﴿وَتَلْكَ حُجَّتْنَا آتَيْنَاهَا أَبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَشَاءِ﴾ [الأنعام : ٨٣] . قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم .

وكذلك قال في قصة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَخُذِ الْأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيهِ ﴾ [يوسف : ٧٦].

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم اتبعوا العلم وان الفقه من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَدَاؤُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحُكِّمَا بِالْحَرْثِ إِذْ نَفَّثْتُ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَقَهْمَنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنباء : ٧٨ - ٧٩].

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال في الأصول والفروع ، ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين قسمين أصولاً وفروعاً لم يكن معروفاً في الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين : إن المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يائمه لا في الأصول ولا في الفروع ، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة ، وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكموا عن عبيد الله بن الحسن العنبري انه قال : كل مجتهد مصيبة ، ومراده أنه لا يائمه .

وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزمًا لإثنهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة ، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعاً له من إظهار البدعة ، ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظہر لها وغيره، وكذلك قال الخرقى ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد . وبسط هذا له موضع آخر .

والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطاً يميز بين النوعين ، بل تارة يقولون : هذا قطعي وهذا ظني ، وكثير من مسائل الأحكام قطعي ، وكثير من مسائل الأصول ظني عند بعض الناس ، فإن كون الشيء قطعياً وظنياً أمر إضافي ، وتارة

يقولون : الأصول هي العمليات الخبريات ، والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتارة يقولون : هذه عقليات وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطئ ، فإن الكفر حكم شرعى يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى كما في مسائل الأحكام ، مثل ذلك ما تقدم في الأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والمتزللة بين المترتبتين ، ومسائل الأسماء والأحكام ، وإنفاذ الوعيد ، وهي التي توالي المعتزلة من وافقهم عليها ، ويتبرؤن من خالفهم فيها ، وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وإثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه وطاعة أمره ، لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم ، وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ومن سلك مسلكهم كأبي الحسن الأشعري وأصحابه فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم ليس عند أولئك ، وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ، وكل من الطائفتين لم تحظ علمًا بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور ، بل علموا بعضًا وجهلوا بعضاً .

فإن هؤلاء المجبرة هم في الحقيقة لا يثبتون لله عدلاً ولا حكمة ولا رحمة ولا صدقاً ، فأولئك قصدوا إثبات هذه الأمور ، أما العدل فعندهم^(١) كل ممكن فهو عدل ، والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه ، ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحاً ، ويقولون : القبيح هو ما نهى عنه وهو لا ناهي له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكراً وشركاً ، والنهي عن كل شيء وإن كان توحيداً أو معروفاً ، فلا ضابط عندهم للفعل ، فلهذا أ Zimmerman جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقاً بين المعجزات وغيرها ولا ما به يعلم صدق النبي ﷺ إلا إذا نقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ» [آل عمران : ٩٨] ، وعندهم هذا لافائدة فيه ، فليس في الممكن

(١) أي عند المجبرة .

قسط وجور حتى يكون قائماً بهذا دون هذا ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .
وكذلك الحكمة عندهم لا تفعل لحكمة ، وقد فسروا الحكمة إما بالعلم وإما
بالقدرة وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيمًا ويكون غير حكيم ، كذلك
المريد قد يكون إرادته حكمة وقد يكون سفهاً ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان
حكمة أو سفهاً ، فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم ، وكذلك الرحمة ما
عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلثين بلا مرجع نسبتها إلى نفع العباد
وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضاً ، وقد بسط هذا
في غير هذا الموضع .

وتبيّن تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا
ومع نفي الحكمة وتبيّن تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض ،
وأن المتكلّفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً منهم ، فإن الرازي ذكر في «المطالب
العلية» مسألة الإرادة ورجح فيها نفي الإرادة ، لأنه لم يمكنه أن يجib عن حجة
المتكلّفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر اليهم ، وكذلك في غير هذا من
المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتكلّفة ، وتارة يرجح قول المتكلّمة ، وتارة يحار
ويقف ، واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفي علیاً ولا تروي
غليلاً .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية بما رأيتها تشفي علیاً ولا
تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات «الرَّحْمَنُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى» [طه : ٥] ، «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ» [فاطر : ١٠] واقرأ في
النفي «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى : ١١] «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» [طه : ١١٠] ،
ومن حرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

فقد تبيّن أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته ، وكذلك الصدق
فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا :
الصدق في الكلام النفسي واجب لأنه يعلم الأمور ، ومن يعلم يمتنع أن يقوم في

نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالى وغيره ، فقيل لهم : هذا ضعيف
لوجهين :
أحدهما : الصدق في ذلك المعنى لا ينفع ان لم يثبت الصدق في العبارات
الدالة عليه ، ويتميز بين الأفعال عندهم .

الثانى : أنهم أثبتو الخبر النفسي ، فإن الإنسان يخبرك بالكذب فيقوم في
نفسه معنى ليس هو العلم ، وهو معنى الخبر، فهذا يتضىء أنهم يقولون : إن العالم قد
يقوم في نفسه خبر بخلاف عمله .

والرازي لما ذكر مسألة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعني به شيئاً خلافاً
للحسوية قيل له : هل قال أحد من طوائف الأمة إن الله لا يعني بكلامه شيئاً ، وإنما
التزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه . وقيل لهم : هب ان في هذا نزاعاً فهو لم
يقم دليل على امتناع ذلك . بل قال هذا عيب أو نقص والله متزه عنه . فقيل له : إما
أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة ، أما الأول فلا يجوز إرادته هنا ،
لأن المسألة هي فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ، ولا يعني به شيئاً ، وذلك القائم
بالذات هو نفس المعنى ، وإن أردت الحروف وهو مراده فتلك عندك مخلوقة ،
ويجوز عندك أن يخلق كل شيء ليس متزهاً عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو
ما لا تريده ، فهذا ممتنع .

فتبيين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ولا على تنزيهه عن العيب في خطابه ،
فإن ذلك إنما يكون من تنزيهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله
ولا حكمته ولا رحمته ولا صدقه ، والمعترضة قصدهم إثبات هذه الأمور ، ولهذا
يذكرونها في خطبة الصفات ، كما يذكرها أبو الحسين البصري وغيره ، كما ذكر في
أول صور الأدلة خطبة مضمونها أن الله واحد عدل لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس
أنفسهم يظلمون ، وإنه بالناس لرؤوف رحيم ، وأظن فيها إثبات صدقه ، ولهذا
يكفرون من يجوره أو يكذبه أو يسفهه أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا في مواضع كثيرة ،
كما قد نبه على هذا في غير موضع .

فكلا الطائفتين ، معها حق وباطل ، ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين
والأنصار وأمن بما جاء به الرسول كله ، على وجهه لم يؤمن ببعض ويکفر ببعض ،

وهو لاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون بخلاف أولئك المختلفين ، قال تعالى : **﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلَذِلِكَ خَلَقُهُمْ﴾** [هود : ١١٨ - ١١٩] .

فصل

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات ، وابن كلام ومن تبعه كالأشعري وأبي العباس القلانسى ومن تبعهم أثبتو الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية ، مثل كونه يتكلم بمشيئته ، ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويغضض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى : **﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾** [التوبه : ١٠٥] فأثبتت رؤيه مستقلة ، وكذلك قوله تعالى : **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾** [يونس : ١٤] ، ومثل كونه نادى موسى حين أتى لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ، فإن المعتزلة والجهمية يقولون خلق نداء في الهواء ، والكلابية والساملية^(١) يقولون : النداء قام بذاته وهو قديم لكن سمعه موسى ، فاستجدوا سماع موسى وإلا فما زال عندهم منادياً .

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا ، وتبين أنه ناداه حين جاء ، وأنه يتكلم بمشيئته في وقت بكلام معين ، كما قال : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾** [الأعراف : ١١٠] . وقال تعالى : **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [آل عمران : ٥٩] . والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل ، وأما الأحاديث فلا تحصى ، وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاة ، ولهذا قال عبد الله بن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما : لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة ، فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير

(١) الكلابية : هم أتباع عبد الله بن سعيد أبو محمد بن كلامقطان المتوفى بعد سنة ٢٤٠ بقليل .

الساملية : هم أتباع أبي محمد عبد الله محمد بن سالم المتوفى سنة ٢٩٧ .

مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل ، والذين قالوا من المتأخرین هو قديم كثیر منهم من لم يتصور المراد ، بل منهم من يقول هو قديم في عمله ، ومنهم من يقول قديم أي متقدم الوجود ، متقدم على ذات زمان المبعث ، لا أنه أزلي لم يزل ، ومنهم من يقول : بل مرادنا بقدیم انه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضوع .

والمحض هنا أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده ، وكان ذلك بمشيئته وقدرته ، إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته ، وبذلك صاروا يرون ويسمعون كلامهم . وقد جاء في القرآن والسنة في غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيمة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : ملك كذاب ، وشيخ زان ، وعائل مستكبر»^(١) وكذلك في الاستماع قال تعالى : «وَأَذْنَتْ لِرَبَّهَا وَحْقَتْ» [الإنشقاق: ٢] أي : سمعت . وقال النبي ﷺ : « ما أذن الله لشيء ، كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن ، يجهر به»^(٢) وقال : « الله أشد أذناً إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قيته»^(٣) فهذا تخصيص بالأذن ، وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض ، وكذلك سمع الإجابة كقوله : « سمع الله لمن حمده » وقول الخليل : « إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» [آل عمران: ٣٨] . « وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَيَمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» [سبأ: ٥٠] ، يقتضي التخصيص بهذا السمع ، فهذا التخصيص ثابت في

(١) رواه مسلم رقم (١٠٧) في الإيمان : باب بيان غلط تحريم إسبال الإزار والمن بالعلبة وتفريق السلعة بالحلف ، والنسائي /٥٨٦ في الزكاة : باب الفقير المختال ، وأحمد في « المسند » ٤٨٠ / ٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ٦٠٩ و ٦١٦ في فضائل القرآن : باب من لم يتغنى بالقرآن ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : «ولا تفخر الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» وباب قول النبي ﷺ : «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة» ومسلم رقم (٧٩٢) في صلاة المسافرين : باب استحباب تحسین الصوت بالقرآن ، وأبو داود رقم (١٤٧٣) في الصلاة : باب استحباب الترتيل في القراءة ، والنسائي ٢/١٨٠ في افتتاح الصلاة : باب تزيين القرآن بالصوت ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه أحمد في «المستند» ١٩/٦ و ٢٠، وابن ماجه رقم (١٣٤٠) في إقامة الصلاة : باب في حسن الصوت بالقرآن ، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، قال أبو بصير في «الزوائد» : إسناده حسن .

الكتاب والسنة ، وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم ، وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل لا بمعنى يقوم بذاته ، وتخصيص من يحب ومحبته بالنظر والاستماع المذكور يقتضي أن هذا النوع مختلف عن غيرهم .

لكن مع ذلك هل يقال : إن نفس الرؤية والسمع الذي هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته ، فلا يمكن وجود مسموع ومرئي إلا وقد تعلق به ، كالعلم ، أو يقال : إنه أيضاً بمشيئته وقدرته ، فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض المخلوقات ؟ هذا فيه قولان :

والأول : قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقد يقولون : متى وجد المرئي والمسموع وجوب تعلق الإدراك به .

والقول الثاني : إن جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته ، فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف ، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني قال : ما نظر الله إلى شيء من خلقه إلا رحمه ، ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم .

وقد يقال هذا مثل الذكر والنسيان فإن الله تعالى قال : «**إذْكُرُونِي أَذْكُرُكُمْ**» .

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال : «يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنّا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١) فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ، ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه كما قال : «**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ**

(١) رواه البخاري ٣٢٥ / ١٣ في التوحيد : باب قول الله تعالى : «**وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ**» وباب قول الله تعالى «**يُرِيدُونَ أَنْ يَبْدُوا كَلَامَ اللَّهِ**» ومسلم رقم (٢٦٧٥) في الذكر : باب الحث على ذكر الله تعالى ، وفي التوبة : باب في الحض على التوبة والفرح بها ، والترمذى رقم (٣٥٩٨) في الدعوات : باب رقم ١٣١ ، وابن ماجه رقم (٣٨٢١) في الأدب : باب فضل العمل ، وأحمد في «المسنّ» ٤١٣ و٢٥١ / ٢ و٤٨٠ و٥٢٤ و٥٣٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى » [طه : ١٢٤ - ١٢٦]
ومثله قوله : «**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ**
الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيهِمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» [التوبه : ٦٧] .

وقد فسروا هذا النسيان بأنه [إعراض] وهذا النسيان ضد ذلك الذكر ، وفي «**الصحيح**»^(٢) في حديث الكافر يحاسبه ، قال : «أفظنت أنك ملاقي ، قال : لا ، قال : فال يوم أنساك كما نسيتني » ، فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله ؛ فهذا النسيان لا ينافي ما علمه سبحانه من حال هذا .

فصل

في جماع الفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلal ، والرشاد والغي ، وطريق السعادة والنجة ، وطريق الشقاوة والهلاك ، أن يجعل ما بعث الله به رسle وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان ، فيصدق بأنه حق وصدق وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فإن وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه تكون ذلك الكلام مجملًا لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقها أو تكذيبها ، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في أمور دنيوية ، مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة ، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول ، فالرسول أعلم

(٢) قطعة من حديث طويل رواه مسلم رقم (٢٩٦٨) في الزهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه أيضاً الترمذى رقم (٢٤٢٦) في صفة القيامة : باب رقم ٦ ، قال الترمذى : ومعنى قوله : اليوم أنساك ، يقول : اليوم أترتك في العذاب هكذا فسروه ، وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية «**فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ**» قالوا : إنما معناه اليوم تتركمهم في العذاب .

الخلق بها وأرغبهم في تعريف الخلق بها ، وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول، إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه ، إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان .

وبيان الرسول على وجهين ، تارة يبين الأدلة العقلية الدالة عليها ، والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعرفة الإلهية والمطالب الدينية ، وتارة يخبر بها خبراً مجرداً لما قد أقامه من الآيات البينات والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله المبلغ عن الله ، وأنه لا يقول عليه إلا الحق ، وإن الله شهد له بذلك ، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدق فيما بلغه عنه ، والأدلة التي بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة ، وهي أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل ، وهي أيضاً شرعية سمعية ، لكن الرسول بينها ودل عليها وأرشد إليها .

وجميع طوائف الناظر متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية ، وهم يذكرون ذلك في كتبهم الأصولية وفي كتب التفسير ، وعامة الناظر أيضاً يحتاجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة عن المطالب الدينية ، فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

والعلوم ثلاثة أقسام ، منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليها الرسول ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذه عن الرسول ، فإن من الناس من يذهب عن هذا ، فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقاً ، لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبدع الذي أحدهه من أحدهه من المتكلمين ، ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه ، لأنه قد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط ، فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه . ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء ، وخبرهم المجرد هو دليل سمعي ، مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الإلهية والملائكة والعرش والجنة والنار ، وتفاصيل ما يؤمر به وينهي عنه .

فاما نفس إثبات الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته ورحمته ونحو ذلك فهذا يعلم بالأدلة العقلية ، وإن كانت الأدلة والآيات التي يأتي بها الأنبياء هي أكمل الأدلة العقلية ، لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد ، وإن كان أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضاً ، فيعلم بالأدلة العقلية التي أرشدوا إليها ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم .

وقد تنازع الناس في العلم بالمعاد وبحسن الأفعال وقبحها ، فأكثر الناس يقولون : إنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل . قال أبو الخطاب : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول : المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر ، وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة ، كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي الجوني ، وأبي الوليد الجاجي ، وغيرهم . وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر ، مثل كون أفعال العباد مخلوقة الله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك .

وكتب أصول الدين بجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية ، لكن الرازى طعن في ذلك في «المطالب العالية» قال : لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديميه عليه ، قال : والعلم بانتفاء العارض العقلي متذر ، وهو إنما يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هذه طريقة أئمته الواقفة في الوعيد كالأشعري والقاضي أبي بكر وغيرهما ، وليس كذلك ، فإن هؤلاء إنما وقفوا في أخبار الوعيد خاصة ، لأن العموم عندهم لا يفيد القطع ، أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة ، وإلا فهم يثبتون الصفات الخبرية لله ، كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعري في ذلك - وهو قول أئمة أصحابه - لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخبرية ، بل فيهم من ينفيها ، ومنهم من يقف فيها كالرازى والأمدي .

فيتمكن أن يقال : قول الأشعري ينزع من قول هؤلاء بأن يقال: لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي ، لكن يقال : المعاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث ، ولكن الرازي هو الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به ، وفي الحقيقة فجميع الأدلة اليقينية توجب علمًا ضروريًا ، والأدلة السمعية الخبرية توجب علمًا ضروريًا بأخبار الرسول، لكن منها ما تكرر أداته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل به علم ضروري من غير تعين دليل ، وقد يعين الأدلة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعيها وعقلها ، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلاً ، فدلائل النبوة وأعلامها تدل على ذلك جملة ، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث يدل على ذلك تفصيلاً .

وأيضاً ، فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولاهم بالحق فيه ، وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم والخطأ مع مخالفتهم ، كما قال الرازي ، مع أنه من أعظم الناس طعناً في الأدلة السمعية ، حتى ابتدع قوله ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين ، ومع هذا فإنه يقول : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروي غليلاً ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرباً في الإثبات

﴿إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلْمُ الطَّيْبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [استوى] [طه: ٥] . واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١] قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأيضاً فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وارشادهم وأخبارهم ، وجدهم حائزين ضاللين شاكين مرتابين ، أو جاهلين جهلاً مركباً ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِيمَةِ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَآءٌ حَتَّى إِذَا جَاؤَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَأَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَذُلُّمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ

مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ
لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ» [النور: ٣٩ - ٤٠].

فصل

وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيئاً وهم كما قال مجاهد: أهل البدع والشبهات يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، كما قال فيهم الإمام أحمد قال : هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يتحجون بالمتشابه من الكلام ، ويضللون الناس بما يشبهون عليهم ، والمفترقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث ، فإن وافقه احتاجوا به اعتقاداً لا اعتقاداً وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه إلى الله ، وهذا فعل عامتهم ، وعمدة الطائفتين في الباطن غير ما جاء به الرسول يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجتها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشارب الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه إلا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل من تمسك بما تشارب عليه من آيات الكتاب ، ويترك المحكم كالنصارى والخوارج وغيرهم ، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشارب من كلام الله وجعلوه محكماً ، وجعلوا المحكم متشارباً ، وأما أولئك كنفأة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ، وكالفلسفه فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنّة ما يوافقه ويجعلون ما جاءت به الأنبياء ، وإن كان صريحاً قد يعلم معناه بالضرورة ، يجعلونه من المتشارب .

ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع حتى قال يوسف ابن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : إن الجهمية نفأة الصفة خارجون عن الشتتين وسبعين فرقه ، قالوا : وأصولها أربعة: الشيعة والخوارج والمرجئة والقدريّة ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضوع أن قوله تعالى : «مِنْهُ آيَاتٌ

مُحَكَّمَاتُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ ﴿آل عمران : ٧﴾ ، في المتشابهات :
قولان :

أحدهما : أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس .

والثاني وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي ، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه
عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا يتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا
عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم كما قال : ﴿أَحْكِمْتُ آيَاتُهُ
ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود : ١] وهذا كقوله : ﴿الْحَلَالُ بَيْنَ الرَّحْمَانِ وَبَيْنَ ذَلِكَ
أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾^(١) . وكذلك قوله : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ
عَلَيْنَا﴾ [البقرة : ٧] وقد صنف أحمد كتاباً في الرد على الزنادقة والجهمية فيما
شكك فيه من متشابه القرآن وتأنلوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ،
وذهبوا على أنهم تأنلوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة ، قد
تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع بن الأزرق لابن
العباس .

قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت وماذا
عني بها ، ومن قال من السلف : إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً ،
ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ومجيء أشراطها ، ومثل كيفية
نفسه وما أعده في الجنة لأوليائه .

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله : إنما
ونحن ، وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعونان لم يرد به أن
الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلم الراسخون ويفرقون بين ما قيل فيه أنا
وما قيل فيه إنما ، لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه إذا كانوا رسلاً ، وأما كونه هو
المعبد لله فهو له وحده ، ولهذا لا يقول فيانا فاعبدوا ، ولا إيانا فارهبو ، بل متى
 جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكيل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر
الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال : ﴿إِنَّا فَتَحَنَّا لَكَ فَتَحَّا مُبِينًا﴾ [الفتح : ١]

(١) تقدم تخریجه ص ٢٦ .

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة : ١٨] ﴿نَتَلْوُ عَلَيْكَ مِنْ نَبِيًّا مُّوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص : ٣] ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم ، وكيفية إرسال الرب لهم ، لا يعلمه إلا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ، ويعقل ويعرف برهانه ، ودليله إما العقلي وإما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ : يتحمل كذا وكذا ، ويتحمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد .

وهذا مثل لفظ المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والعرض ولفظ الحيز ونحو ذلك ، فإن من هذه الألفاظ ما لا يوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضاً ، بل هم يختصون بالتعبير بها على معانٍ لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطن ما دل عليه القرآن الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدتهم ، فإنها ملقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل ، وفي المعنى ليس بدليل ، كمن يقول سهيل بعيد من الثريا ، لا يجوز أن يقترب منها ولا يتزوجها ، والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلًا

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلًا اسمه سهيل ثم قال :

عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك يجعل تعجبه وإنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدتهم المفصلة في غير موضع .

والأصل الذي بنى عليه نفأة الصفات وعطلوا ما عطلوه حتى صار متهاهم إلى قول فرعون الذي جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى في أن الله كلمة، هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يدخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم . وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين .

والسلف لم يذموا جنس الكلام ، فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله^(١) ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاماً هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل .

فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل ، ولكن كثير من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل ، حتى اعتقد أن إبراهيم الخليل استدل به . ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الإيمان أو لا يتم إلا به ، ولكن من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة ، علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد ، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل . لكنه طويل أو يبعد المعرفة ، أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف مع اعتقادهم أنه يوصل إلى المعرفة ، وأنه صحيح في نفسه ، وأما الحذاق العارفون تحقيقه ، فعلموا أنه باطل عقلاً وشرعاً ، وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أو أصله إلى الحيرة والشك .

(١) في قوله تعالى : « وَجَاءُوكُمْ بِأَنَّهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

ولهذا صار حذّاق سالكيه يتھون إلى الحيرة والشك ، إذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس في الوجود قديم ، وهذا مكابرة ، فإن الوجود مشهود ، وهو إما حادث وإما قديم ، والحادث لا بد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرین .

وكذلك ما ابتدعه في هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممکن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك في غير هذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممکن ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طریقاً لإثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طریقاً لإثبات القديم ، وكلاهما ينافق ثبوت القديم والواجب ، فليس في واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا صار حذّاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه . وقالوا : هو الله ، وأنكروا أن لا يكون العالم رب مباین للعالم ، إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه من أنكر الصانع ، ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجوداً قديماً ولا واجباً لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم ، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

ولكن وصفوه بصفات الممتنع ، فقالوا : لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو صفة ولا موصوف ولا يشار إليه ، ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لا صفة الموجود ، فدليلهم في نفس الأمر يستلزم أنه ماثم قديماً ولا واجباً ، ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب .

وهذا الذي أثبتوه هو ممتنع ، فما أثبتوا قديماً ولا واجباً ، فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ولا بد من إثبات القديم والواجب ، فقالوا : هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا : هو عين الموجودات والموجود القديم الواجب هو نفس الوجود المحدث الممکن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه ، وأما حقيقة قولهم فهو النفي

أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهمية الأوصاف إلا أنها قد حلت بمحاسن الأشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب ، فان هذا لا يقصده أحد من العقلاة لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد بيديه عقله ، فإنه إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم ، لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ، ولهذا قال تعالى : «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» [الطور: ٣٥] وقد قيل : «أَمْ خلقوا من غير شيء» من غير رب خلقهم ، وقيل : من غير مادة ، وقيل : من غير عاقبة وجذراء ، والأول مراد قطعاً ، فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

ومعرفة الفطر أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها من أن كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاة نازع في هذا وهذا . ولم ينزع في الأول طائفة قالت : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحده ، بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، وإنما أن يقول إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة ، وإنما يحكى عنمن لا يعرف .

ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله من حصل له فساد في عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسبة تعرض لأحاد الناس وفي بعض الأمور ، ولكن أمّة من الأمم كلهم سوفسّطائية في كل شيء ، هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمّة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث .

وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئة فهو محدث وممكن ، لزمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله متصفاً

بما يقوم به من الصفات والأمور الاختياريات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ، ويرخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته ، لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه لاعتقادهم صحة القول بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لأن ذلك لا يخلو من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإذا كان حادثاً كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب ، وأنه ذات مجردة عن الصفات ، ووجوده مطلق لا يشار إليه ولا يتعين ، ويقولون : هو بلا اشارة ولا تعين .

وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له في الخارج ، وإنما هو في الذهن ، فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، فجاء أخوانهم في أصل المقالة وقالوا : هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات هو الوجود الساري في الموجودات ، فقالوا بحلوله في كل شيء ، وقال آخرون منهم : هو وجود كل شيء ، ومنهم من فرق بين الوجود والثبت ، ومنهم من فرق بين التعيين والاطلاق ، ومنهم من جعله في العالم كالمادة في الصورة ، ومنهم من جعله في العالم كالزبد في اللبن ، وكالزيت والشیرج في السمسم والزيتون ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضوع .

ومقصود هنا أن الأصل الذي أصلهم قولهم ما قامت به الصفات والأفعال والأمور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا : والجسم لا يخلو من الحوادث وأثبتوا ذلك بطرق ، منهم من قال : لا يخلو عن الأكون الأربعة : الحركة والسكنون والاجتماع والافتراق ، ومنهم من قال : لا يخلو عن الحركة والسكنون فقط ، ومنهم من قال : لا يخلو عن الأعراض ، والأعراض كلها حادثة ، وهي لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمني ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازي اعتمد على طريقة الحركة والسكنون ، وقد بسط الكلام على هذه الطرق وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم وإمكانه ، وذكرنا في ذلك كلامهم هم أنفسهم في فساد جميع هذه الطرق ، وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وإمكانه ، وبينوا فسادها طریقاً طریقاً بما ذكروه ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع .

وأما الهشامية والكرامية⁽¹⁾ وغيرهم ممن يقول بأنه جسم قديم فقد شاركوه في أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم، ولا قالوا إن الجسم لا ينفك عن الحوادث ، إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهو حال من الحوادث ، وقد قيل : أول من قال في الإسلام: إن القديم جسم هو هشام بن الحكم ، كما أن أول من أظهر في الإسلام نفي الجسم هو الجهم بن صفوان .

وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض الجسم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وإسحاق بن راهويه وغيرهما . قالوا : المشبهة الذين يقولون بصرى ، ويد كيدي ، وقدم كقدمي ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته [فاما التي تتعلق بمشيئته وقدرته] فيتفونها . قالوا : لأنها حادثة ، ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً ، لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن صده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

ومحمد بن كرام كان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج ، أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ، ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده يمتنع أنه كان في الأزل متكلماً بمشيئته وقدرته لامتناع حادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف إنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، بل قال : إنه صار يتكلم بمشيئته وقدرته ، كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك .

وقال هو وأصحابه في المشهور عنه : إن الحوادث التي تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها ، لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلاً لحدوثها وزوالها ، وإذا كان قابلاً كذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على أصحابهم أنه تقوم به الحوادث فقط كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ، ولا يلزم من

(1) الهشامية : هم أصحاب الهشامين : هشام بن الحكم صاحب المقالة في التشبيه ، وهشام بن سالم الجوالبي الذي نسج على منواله في التشبيه .

والكرامية : هم أتباع محمد بن كرام أبو عبد الله .

ذلك أنها لم تخل منه ، كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلاً لها ، والحدث عندهم غير الإحداث ، والقرآن عندهم حادث لا محدث ، لأن المحدث يفتقر إلى إحداث بخلاف الحدوث .

وهم إذا قالوا كان حالياً منها في الأزل وكان ساكناً ، لم يقولوا إنه قام به حادث ، بل يقولون السكون أمر عدمي كما ي قوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر وجودي ، بخلاف ما يقوله من المعتزلة والأشعرية إن السكون أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث ، فإنما ي عدم الحادث بإحداث يقوم به ، وهذا ممتنع ، وهم يقولون إنه يمتنع عدم الجسم .

وعندهم أن الباري يقوم به إحداث المخلوقات وإفناؤها ، فالحوادث التي تقوم بهم تقوم به لو أفنيناها لقام به الإحداث والإفناه فكان قابلاً لأن يحدث فيه حادث ويفني ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناه ، فلم يخل من الحوادث ، وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلبية .

لكن المعتزلة يقولون السكون ضد الحركة ، فالقابل لأحداثها لا يخلو عنه وعن الآخر ، وهؤلاء يقولون: السكون ليس بضد وجودي بل هو عدمي . وإنما الوجودي هو الإحداث والإفناه ، فلو قبل قيام الإحداث والإفناه به لكان قابلاً لقيام الأصداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وهؤلاء لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم ، كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الأدمي تناقضهم من وجوه كثيرة قد ذكرت في غير هذا الموضوع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول : إنه تقوم به الحوادث وتزول وإنه كلام موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية لهم في ذلك قولان، وإلا فالقول بفناء الصوت الذي كلام به موسى من جنس القول بقدمه ، كما يقول ذلك من ي قوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية

وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول : إنه كلام موسى بصوت سمعه موسى وذلك الصوت قديم ، وهذا القول يعرف فساده ببديهيته العقل ، وكذلك قول من يقول كلامه بصوت حادث وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائل ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها ببديهيته .

وإنما أوقع هذه الطوائف في هذه الأقوال ذلك الأصل الذي تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلاً وشرعًا ، وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع، وبه استطالت عليهم الفلسفه الدهريه : فلا للإسلام نصروا ، ولا لعدوه كسروا ، بل قد خالفوا السلف والأئمة ، وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة والدهريه والملحدة بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول وثبت لهم الأصل ، ولكن ضيغوا الأصول فحرموا الوصول ؛ والأصول اتباع ما جاء به الرسول .

واحدثوا أصولاً ظنوا أنها أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين ؛ مثل البناء والشجرة فقال في المؤمنين والمنافقين : ﴿أَفَمِنْ أَسَسَ بُيُّانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْنَ أَسَسَ بُيُّانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارِ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبه : ١٠٩] ، وقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشْجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتَيِ أُكُلَّهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبَّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلٌ كَلِمَةٌ خَبِيثَةٌ كَشْجَرَةٌ خَبِيثَةٌ اجْتَثَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٧] ، والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ، ولهذا يقال فيه الأصل : ما ابتنى عليه غيره ، أو ما يفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء كما قيل :

أيها المغتدي لطلب علمًا كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع كي تصحح حكمًا ثم أغفلت أصل الأصول

والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وهذه الأصول ينبغي عليها ما في القلوب ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين .

والكلمة هي قضية جازمة وعقيدة جامعة ، ونبينا ﷺ أتي فواتح الكلام وحواتمه وجوابه ، ببعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والأخيرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن ، كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصُدُّ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرَفَعُهُ﴾ [فاطر : ١٠] والله سبحانه مثل الكلمة الطيبة أي كلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن ، ولها فرع عال وهي ثابتة في قلب ثابت ، كما قال : ﴿يَثَبُّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [ابراهيم : ١٤] ، فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة ، والإيمان في قلبه ثابت مستقر ، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ، استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجثث من فوق الأرض ، ما لها من قرار : لا مكان تستقر فيه ولا استقرار في المكان ، فإن القرار يراد به مكان الاستقرار ، كما قال تعالى : ﴿وَبِئْسَ الْقَوْرَأُ﴾ [ابراهيم : ٢٩] ، وقال ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر : ٦٤] ، ويقال : فلان ما له قرار أي ثبات ، وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا .

فالبطل ليس قوله ثابتًا في قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر ، كما قال تعالى في المثل الآخر ﴿فَأَمَّا الرَّبُّ فَيَدْهُبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد : ١٧] ، فإنه وإن اعتقاده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه ، كالذى يشرك بالله ،

فعدن الحقيقة يضل عنه ما كان يدعوه من دون الله ، وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه ، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله إلى الله ، فإنه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول . ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى : ﴿لَهُ دُعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيْبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْيَلْغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَالِيْغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد : ١٤] .

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبد وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسليه ، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسليه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفتة ، ولا عبدوه حق عبادته .

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في ثلاث مواضع ليثبت عظمته في نفسه ، وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته ، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسليه فقال في [الزمر : ٦٧] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية . وقال في [الحج : ٧٥ - ٧٤] ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وقال في [الأنعام : ٩١] ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ .

والمواضع الثلاثة ذم للذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره ، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقائه ، وأن يجاهد فيه حق جهاده ، قال تعالى : ﴿وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج : ٧٨] وقال : ﴿أَتَقُوا اللَّهُ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران : ١٠٢] والمصدر هنا مضارف إلى

المفعول ، والفاعل مراد ، أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق تقاته التي أمركم بها ، وقدر وقده الذي بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر ، وأطعوه فيما أوجب وأمر ، وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا ينم أحد على تركه . قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريضة على اللهو .

ودللت الآية على أن له قدرًا عظيمًا لا سيما قوله : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» [الزمر : ٦٧] ، وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : من آمن بأن الله على كل شيء قادر فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت في «الصحيحين»^(١) من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال على أصبع ، والشجر والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا وتصديقاً لقول الحبر ، وقرأ هذه الآية .

وعن ابن عباس قال : مر يهودي بالنبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ، والأرض على ذه ، والجبال والماء على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله تعالى : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» رواه الإمام أحمد والترمذى^(٢) من حديث أبي الضحى عن ابن عباس ، وقال : غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر ، فإن الذي في الآية أبلغ

(١) رواه البخاري ٤٢٣/٨ في تفسير الزمر : باب قوله تعالى : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ» ، وفي التوحيد : باب قوله تعالى : «لَمَا خَلَقْتَ بِيَدِي» وباب قول الله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إِنْ تَرَوْلَا» ، وباب كلام الرب عز وجل يوم القيمة مع الآباء ، ومسلم رقم (٢٧٨٦) في صفة القيمة ، والترمذى رقم (٣٢٣٩) في التفسير : باب ومن سورة الزمر ، وقد أفضى الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١٣ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ في شرح هذا الحديث فارجع إليه .

(٢) رواه الترمذى رقم (٣٢٤١) في التفسير : باب ومن سورة الزمر ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه ، إلا من هذا الوجه ، وأبو كدينة - أحد الرواة - واسمه : يحيى بن المهلب ، ورأيت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - روى هذا الحديث عن الحسن بن شجاع عن محمد بن الصلت ، ورواه أحمد في «المسندة» : رقم (٢٢٦٧) من روایة حسین الأشقر ، عن أبي كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس ، وإنستاده ضعيف ، لكن طريق الترمذى تقويه .

كما في «ال الصحيحين »^(١) عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض يوم القيمة ، ويطوي السماء بيمنيه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ». .

وفي «ال الصحيحين »^(٢) عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله السموات يوم القيمة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أين الملوك ؟ ! أين الجبارون ؟ ! أين المتكبرون » ؟ ! ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه انه يأخذ الأرض بيده الأخرى .

وقد روى ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، ثنا عمُر بن رافع ، ثنا يعقوب بن عبد الله ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، قال : تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا : ما لم يعلموا ولم يروا ، فأنزل الله على نبيه : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْرِيَاتٌ بِيمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » فجعل صفتة التي وصفوا بها شركاً .

وقال : حدثنا أبي ، ثنا أبو نعيم ، ثنا الحكم يعني أبي معاذ عن الحسن ، قال : عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذوا يقدّرونها ، فأنزل الله تعالى على نبيه « وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ » وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه ، وأنهم لم يقدّروه حق قدره .

وقوله : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك ، سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء ، فعدل بربه ، والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمي له ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ممثل ، والمعطل شر من المشرك .

(١) رواه البخاري ٤٢٣/٨ في تفسير سورة الزمر : باب قوله : « والأرض جمياً قبضته يوم القيمة » في التوحيد : باب قول الله تعالى : « ملك الناس » و ١١/٣٢١ في الرفاق بباب يقبض الله الأرض يوم القيمة ، ومسلم رقم (٢٧٨٧) في صفات المناقين : باب صفة القيمة والجنة والنار .

(٤) رواه البخاري ١٣/٣٤ في التوحيد : باب قول الله تعالى : « لما خلقت بيدي » ومسلم رقم (٢٧٨٨) في صفات المناقين : باب صفة القيمة ، وأبو داود رقم (٤٧٣٨) في السنة : باب الرد على الجهمية .

والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإن حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى ، وليس لله صفة يماثله فيها غيره ، فلهذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمثيل ولا قياس الشمول الذي يستوي أفراده ، فإن ذلك شرك ، إذ سوى فيه بالملحق ، بل قياس الأولى ، فإن سبحانه له المثل الأعلى في السموات والأرض ، فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص . وقد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضوع .

ويبين أن من جعله الوجود المطلق والمقييد بالسلب أو ذاتاً مجردة ، فهو لا إمثلوه بأنقص المعقولات الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية ، والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم لم يثبتوا بذلك حدوث شيء ، كما قد بين في موضعه .

ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النعائص على نفي الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينزع الله عن شيء من النعائص البتة ، فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام ، إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة ، فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التي ينفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيماً وقولاً باطلاً فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبتت هذا على الوجه الذي يليق بالرب ، قيل له : وكذلك هذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم ، قيل : ذلك وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن كان ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعزلة ، قيل له في الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً وهو لا يعرف من هو متصرف بذلك إلا جسماً ، كان إثبات أن له علمًا وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك ، وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية الممحضة والملاحضة ، قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال :

لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي ، قيل له : سكوتكم لا ينفي الحقائق ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإذاً أن يكون حقيقة ثابتة موجوداً ، وإنما أن يكون باطلًا معدوماً .

وأيضاً فإن كنت لم تعرفه فأنت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به ، مثل أن يقول : رب العالمين أو القديم الأزلية أو الموجود بنفسه ونحو ذلك ، وحيثئذ فقد أثبتت حقيقة موجوداً قائماً بنفسه وأثبتته فاعلاً ، وأنك لا تعرف ما هو كذلك إلا الجسم ، وإن قدر أنه جاحد له ، قيل له : فهذا الوجود مشهود ، فإن كان قديماً أزلياً موجوداً بنفسه فقد ثبت جسم قديم أزلي موجود بنفسه ، وهو ما فررت منه ، وإن كان مخلوقاً مصنوعاً فله خالق خلقه ولا بد أن يكون قديماً أزلياً . فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الأزلية على كل تقدير ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع .

وهنا قد نبهنا على ذلك وأنه كل من بنى تزييه للرب عن الناقص والعيب على نفي الجسم ، فإنه لا يمكنه أن ينزعه عن عيب أصلاً بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفي التركيب .

ومن تدبر ما ذكروه في كتبهم تبين لهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلا هم أثبتوا وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزهوه ونفوا عنه ما لا يجوز عليه ، إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ولم يقيموا على ذلك دليلاً ، والنفي اعتمدوا فيه على ذلك ، وهم متناقضون فيه ، لو كانوا أقاموا دليلاً على نفي كونه جسماً فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلاً وتناقضوا .

وهذا مما يبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنّة ليس معه علم لا عقلي ولا سمعي ، لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعائدات صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلو لهم ثبت ما ثبت ، وتلغي ما تلغي ، بناءً على هذه الفطرة المكمّلة بالشرعية المترفة ، لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية ، وليس فيها علم أصلاً ، ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه .

ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ،

كما فعل القاضي أبو بكر في « هداية المسترشدين » وغيره فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبي ﷺ بالمدينة وكانوا أحياناً يذكرون له بعض الصفات كحدث الخبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم : إن الله فقير ، وإن يده مغلولة ، وغير ذلك ، ولم يقل النبي ﷺ قط إنهم يجسمون ولا إن في التوراة تجسيماً ولا عابهم بذلك ، ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفا ، فيبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع والعقل ، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ولما فطر عليه عباده ، وأن أهلها من جنس الذين قالوا : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقَلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعْيِ﴾ [الملك : ١٠] . وقد بينا في غير هذا الموضوع فساد ما ذكره الرازي من أن طريقة الوجوب والإمكان من أعظم الطرق ، وبيننا فسادها وأنها لا تفيد علمًا ، وأنهم لم يقيموا دليلاً على إثبات واجب الوجود ، وأن طريقة الكمال أشرف منها ، وعليها اعتماد العقلاة قديماً وحديثاً ، وهو قد اعترف في آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية بما وجدها تشفي عليلاً ولا تروي غليلًا ، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن .

وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا ، وهوأخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ، ليتمكنه القول بأن الفلك ممكן مع قدرته ، وخالف بذلك عامة العقلاة من سلفه وغير سلفه وخالف نفسه ، فإنه قد ذكر في المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكן لا يكون إلا محدثاً ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضوع .

ثم إن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون ، فإن فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كلامه ، وهؤلاء ينتهي قولهم إلى جحد الخالق وإن أثبتوه ، قالوا : إنه لا يتكلم ولا نادى أحداً ولا ناجاه ، وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم ، وفي نفي كلامه وتکلیمه لموسى على أنه لا تحله الحوادث ، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل . فحقيقة قولهم تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هي كلامه الذي

بعثه به ، فإذا لم يكن متكلماً لم تكن رسالة ، ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقل : إنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته ، لم يقل إنه يتكلّم . والنفأة منهم من يقول الكلام صفة فعل بمعنى أنه مخلوق بائن عنهم ، ومنهم من يقول هو صفة ذات بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته ، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكل طائفة مصيبة في إبطال باطل الأخرى .

والدليل يقوم على أنه صفة ذات وفعل تقوم بذات الرب ، والرب يتكلم بمشيئته وقدرته ، فأدلة من قال : إنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته ، وهذا حق ، وأدلة من قال : إنه صفة ذات ، إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته ، وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كمن قال : إن كلامه مخلوق ، أو قال : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، فهو لاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ولا أثبتوا له كلاماً ، ولهذا يقولون ما لا يعقل ، هذا يقول : إنه معنى واحد قام بالذات ، وهذا يقول حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته ، وهذا يقول مخلوق بائن عنه .

ولهذا ظهر لطائفة من أتباعهم ما في قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا عين هذه الأقوال الثلاثة ، حاروا وتوقفوا وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقاً أو بحرف وصوت أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا ، ومعلم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها ومعرفة ما جاء به الرسول ، وهو الموفق لتصريح المعقول - أنسع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم ، لا سيما والقلوب تتطلب معرفة الحق في هذه بالفطرة ، ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها .

وهو لاء يذكرون هذا الوقف في عقائدهم وفيما صنفوه في أصول الدين . كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام ، قد صنفوه في أصول الدين ما صنفوه ، ولما تكلموا في مسألة القرآن - وهل هو مخلوق أو قديم أو هو الحروف والأصوات ، أو معنى قائم بالذات - نهوا عن هذه الأقوال ، وقالوا : الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم إن القرآن كلام الله ، ويمسك عن هذه الأقوال ، وهو لاء توقفوا عن حيرة وشك ، ولهم رغبة في العلم والهدى والدين ، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال .

الثلاثة : قول المعتزلة والكلابية والساملية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفي كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قوله غير هذه ، فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب إليهم من الجهل المركب .

وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع ، كما سلكها من ذكرته من اجلاء شيخوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفي عن الواجب أن يكون جسمًا بهذه الطريقة ، وذلك نفي عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلاً بها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط في غير هذا الموضوع .
والله سبحانه قد أخبر أنه ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِّرُوا﴾ وأخبر أنه ينصر رسليه والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ، فإن كان قد قدح فيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتدلي في عقله وعلمه ، وظهر من جهله ما عوقب به ، ومن قال عنهم : إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه ، ومن قال : إنهم جهال ، أظهر الله جهله ، ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى : إنه ساحر كذاب ، أخبر الله بذلك عنهم في قوله :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَابٌ﴾ [غافر : ٢٣ - ٢٤] ، وطلب فرعون إهلاكه بالقتل ، وصار يصفه بالعيوب كقوله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرْنِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلَيُدْعُ رَبِّهِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر : ٢٦] ، وقال : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ﴾ [الزخرف . ٥٢] ، أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسليه ، وأدله غاية الإذلال ، وأعجزه عن الكلام النافع ، فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل ، كان يسمى أبو الحكم ، ولكن النبي ﷺ سماه أبو جهل ، وهو كما سماه رسول الله ﷺ أبو جهل ، أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة .

والذين قالوا عن الرسول إنه أبتر ، وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره ، عوقبوا

بابنبارهم ، كما قال تعالى : «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» [الكوثر : ٣] ، فلا يوجد من شئناً الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسته ، قيل لأبي بكر بن عياش : إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة ، فقال : من جلس للناس جلس الناس إليه ، لكن أهل السنة يبقون ويذكرون ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم .

وهو لاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات الذين وافقوا فرعون في جحده ، وقالوا : إنه ليس فوق السماوات ، وإن الله لم يكلم موسى تكليماً كما قال فرعون : «يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلَّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَيَّهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَاذِبًا» [غافر : ٣٦ - ٣٧] وكان فرعون جاحداً للرب فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال «فَأَطْلَعَ إِلَيَّهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَاذِبًا» قال تعالى : «وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدُّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابِ» [غافر : ٣٧] ، وقال تعالى : «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا آيُهَا الْمَلِأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلَّي أَطْلَعَ إِلَيَّهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجْهُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ * فَأَخَذَنَاهُ وَجْهُنُودُهُ فَنَبَذَنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» [القصص : ٤٢ - ٣٨] .

ومحمد ﷺ لما عرج به إلى ربه ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، ذكر أنه رجع إلى موسى ، وأن موسى قال له : ارجع إلى ربك فسله التخفيف على أمتك كما تواتر هذا في أحاديث المراجـ(١) ، فموسى صدق محمدـ في أن ربه فوق ، وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق ، فالمرـون بذلك متبعون لموسى ومحمدـ والمكذـون

(١) رواه البخاري / ١٣ - ٣٩٩ - ٤٠٦ في التوحيد : باب ما جاء في قوله عز وجل : «وَكَلَمُ اللهِ مُوسَى تكليماً» وفي الأنبياء : باب صفة النبي ﷺ ، ومسلم رقم (١٦٢) في الإيمان : باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات ، والنـاني / ٢٢١ في الصلاة : باب فرض الصلاة ، والترمذـي رقم (٣١٣٠) في التفسـير : باب ومن سورة بني إسرائيل ، من حديث أنس رضي الله عنه . انظر «جامع الأصول» رقم (٨٨٦٦) و (٨٨٦٧) و (٨٨٦٨) و (٨٨٦٩) و (٨٨٧٠) و (٨٨٧١) و (٨٨٧٢) و (٨٨٧٣) .

بذلك مواقفون لفرعون .

وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهي مما اعتمد عليه أبو الحسن الأشعري في كتابه في « الإنابة » وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية على أن الله فوق العالم ، وقال في أوله .

(فإن قال قائل قد أنكرتم قول الجهمية والقدريه والخوارج والروافض ، والمعتزلة والمرجئة ، فعرّفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون . قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، فإنه الإمام الكامل . والرئيس الفاضل الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من إمام مقدم وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين)^(١) . وذكر جملة الاعتقاد والكلام على علو الله على العرش وعلى الرؤية ومسألة القرآن ونحو ذلك وهذا مبسوط في غير هذا الموضوع . والمقصود هنا أن المعطلة نفاة الصفات أو نفاة بعضها لا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول ، إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن الإثبات لا النفي ، لكن يعتمدون في ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول ، فلم وحقيقة قولهم : إن الرسول لم يذكر في ذلك ما يرجع إليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب في ذلك على زعمهم بخلاف غير هذا ، فإنهم معترضون بأن الرسول ذكر في القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب وعلى صدق الرسول ، وقد يقولون أيضاً : إنه أخبر بالمعاد ، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكره من النفي لم يذكره الرسول ، فلم يخبر به ، ولا ذكر دليلاً عقلياً عليه ، بل إنما ذكر الإثبات وليس هو في نفس الأمر حقاً ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض .

فلما نسبوا ما جاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعي ولا عقلي ، ولا

(١) ص ١٧ من طبعتنا . مكتبة دار البيان بدمشق .

خبر يبين الحق، ولا دليل يدل عليه ، عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه في هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع ، مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فإذا اختبه العارف وجده من الشبهات الشيطانية من جنس شبهات أهل السفسطة والإلحاد الذين يقدحون في العقليات والسمعيات ، وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقليات ، فإذا حق الأمر وجدتهم كما قال أهل النار : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِير﴾ [الملك : ١٠] ، وكما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِيمَةِ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاةَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدُوهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَاهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُّمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُّمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور : ٤٠ - ٣٩] .

فلما كان حقيقة قولهم : إن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعي ولا عقلي ، سلبهم الله في هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين ، وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

وقد قيل : إن أول من عرف أنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه قول فرعون هو الجعد بن درهم ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال : أيها الناس ضحوا قبل الله ضحاياكم إني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً ، ثم نزل فذبحه ، وشكر له علماء المسلمين ما فعله كالحسن البصري وغيره ، وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاءبني أمية ، وكان شئمه عاد عليه حتى زالت الدولة ، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله من خالف الرسل وانتصر لهم .

ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكو الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندة ، الذي هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون إنكار الصانع وإنكار

عبادته ، وختار ما كانوا يتظاهرون به الرفض ، فكان خيارهم وأقربهم إلى الإسلام الراضة ، وظهر بسيئهم الرفض والإلحاد حتى كان من كان ينزل الشام مثل بنى حمدان الغالية ونحوهم متشاريع ، وكذلك من كان من بنى بويه في المشرق .

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم ، قال : وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهذا سمي حينئذ بأمير المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم ، ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولـي المقتدر قال : هذا صبي لا تصح ولايته ، فسمي بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهذا الاسم ، لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبتهم باطلاً كدينهم، بخلاف الأموي والعباسي ، فإن كلـهما نسبـه صحيح ، وهم مسلمـون كأمثالـهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفساد المخالف لـدين الرسول سلطـت عليهم الأعداء ، فخرـجـتـ الروـمـ النـصـارـىـ إـلـىـ الشـامـ وـالـجـزـيرـةـ مـرـةـ بـعـدـ مـرـةـ ، وـأـخـذـواـ الثـغـورـ الشـامـيـةـ شـيـئـاـ بـعـدـ شـيـئـاـ إـلـىـ أـنـ أـخـذـواـ بـيـتـ المـقـدـسـ فـيـ أـوـاـخـرـ المـائـةـ الـرـابـعـةـ ، وـبـعـدـ هـذـاـ بـمـدـةـ حـاـصـرـوـ دـمـشـقـ ، وـكـانـ أـهـلـ الشـامـ بـأـسـوـإـ حـالـ بـيـنـ الـكـفـارـ النـصـارـىـ وـالـمـنـافـقـيـنـ الـمـلـاحـدـةـ ، إـلـىـ أـنـ تـولـىـ نـورـ الدـيـنـ الشـهـيدـ ، وـقـامـ بـمـاـ قـامـ بـهـ مـنـ أـمـرـ إـلـاسـلامـ وـالـطـهـارـةـ وـالـجـهـادـ لـأـعـدـائـهـ ، ثـمـ اـسـتـنـجـدـ بـهـ مـلـوكـ مصرـ بـنـوـ عـبـيدـ عـلـىـ النـصـارـىـ ، فـأـنـجـدـهـمـ ، وـجـرـتـ فـصـولـ كـثـيرـةـ إـلـىـ أـنـ أـخـذـتـ مـصـرـ مـنـ بـنـيـ عـبـيدـ ، أـخـذـهـاـ صـلـاحـ الدـيـنـ يـوسـفـ بـنـ شـادـيـ ، وـخـطـبـ بـهـ لـبـنـيـ عـبـاسـ ، فـمـنـ حـيـنـئـذـ ظـهـرـ إـلـاسـلامـ بـمـصـرـ بـعـدـ أـنـ مـكـثـ بـأـيـديـ الـمـنـافـقـيـنـ الـمـرـتـدـيـنـ عـنـ دـيـنـ إـلـاسـلامـ مـائـةـ سـنـةـ .

فـكـانـ إـلـيـمـانـ بـالـرـسـولـ وـالـجـهـادـ عـنـ دـيـنـهـ سـبـبـاـ لـخـيرـ الدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ ، وـبـالـعـكـسـ الـبـدـعـ وـالـإـلـحـادـ وـمـخـالـفـةـ مـاـ جـاءـ بـهـ سـبـبـ لـشـرـ الدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ .

فـلـماـ ظـهـرـ فـيـ الشـامـ وـمـصـرـ وـالـجـزـيرـةـ إـلـحـادـ وـالـبـدـعـ سـلـطـتـ عـلـيـهـمـ الـكـفـارـ ، وـلـمـ أـقـامـوـاـ مـاـ أـقـامـوـهـ مـنـ إـلـاسـلامـ وـقـهـرـ الـمـلـحـدـيـنـ وـالـمـبـتـدـعـيـنـ نـصـرـهـمـ اللـهـ عـلـىـ الـكـفـارـ تـحـقـيقـاـ

لقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَلَيَدْخُلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدِنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَآخَرَى تُجْبُونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبِشْرٌ الْمُؤْمِنِينَ » [الصاف : ١٠ - ١٣].

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالاسلام وكانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والالحاد والفسور سلط عليهم الكفار ، قال تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِتُقْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلَمَنَّ عُلُواً كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعْثَانًا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بِأَسْ سَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَلَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَيُتَبَرُّوا مَا عَلَوْا تَبَرِّيًّا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عَدْتُمْ عُدُنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » [الإسراء : ٤ - ٨].

وكان بعض المشايخ يقول هولاكو ملك الترك التتار الذي قهر الخليفة بالعراق وقتل بغداد مقتلة عظيمة جداً ، يقال : قتل منهم ألف ألف ، وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ كان بعض الشيوخ يقول : هو لل المسلمين بمنزلة بختنصر لنبي إسرائيل .

وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الإلحاد والنفاق والبدع ، حتى إنه صنف الرازبي كتاباً في عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر سماه « السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم » ، ويقال : إنه صنفه لأم السلطان علاء الدين محمد بن لكش بن جلال الدين خوارزم شاه ، وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازي به اتصال قوي حتى إنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتاباً سماه « الرسالة العلائية في الاختيارات السماوية » .

وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخاراة التي علمها النبي ﷺ

ال المسلمين ، كما قال جابر في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري^(١) وغيره : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخاراة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليرجع ركتعين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخلك بعلموك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم [فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب] اللهم إن كنت تعلم إن هذا الأمر ، وتسميه بإسمه ، خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ويسره ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي ، وعاقبة أمري ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به ». وأهل النجوم لهم اختيارات إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلاً أخذ طالعاً سعيداً ، فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتاباً في الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكم يخبرون من خبر فيكون كذباً ، وكم يأمرون باختيار فيكون شرّاً .

والرازي صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر في «السر المكتوم في عبادة الكواكب» ودعوتها مع السجود لها والشرك بها ودعائهما ، مثل ما يدعون الموحدون ربهم بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسق والعصيان ، فذكر أنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله ، وهذا في نفس الأمر يقرب إلى الشياطين الذين يأمرونهم بذلك ويقولون لهم : إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكوكب مسخرات بأمر الله مطيبة لله لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاشي ، ولكن الشياطين هي التي تأمر بذلك ويسمونها روحانية الكواكب ، وقد يجعلونها ملائكة ، وإنما هي شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق بسبب مثل هذا الملك ونحوه ومثل هذا العالم ونحوه ، ما ظهر من الالحاد والبدع، سلط الله عليهم الترك المشركين

(١) رواه البخاري ١٥٥ / ١١ - ١٥٨ في الدعوات: باب الدعاء عند الاستخاراة، وفي التطوع: باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : « قل هو القادر » ، وأبو داود رقم (١٥٣٨) في الصلاة : باب في الاستخاراة ، والترمذ رقم (٤٨٠) في الصلاة : باب ما جاء في صلاة الاستخاراة ، والنمسائي ٦ / ٨٠ و ٨١ في النكاح : باب كيف الاستخاراة ، وأبي ماجة رقم (١٣٨٣) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في صلاة الاستخاراة ، وأحمد في المسند ٣٤٤ / ٣ .

الكفار ، فأبادوا هذا الملك وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله به في كتابه حيث يقول : ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت : ٥٣] أي أن القرآن حق ، وقال : ﴿سَارِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الأنباء : ٣٧] وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دولة بنى أمية كان انحرافها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب التي أوجبت إدبارها ، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان ، قد قيل : إن أصله من ترمذ وأظهر قول المعلولة النفاجة الجهمية وقد قتل في بعض الحروب ، وكان أئمة المسلمين بالشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق ، ولهذا يوجد عبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالشرق من الكلام في الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم ، مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالشرق ، لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمؤمن بالشرق ، وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه . ثم لما ولي الخليفة اجتمع بكثير من هؤلاء ودعا إلى قولهم في آخر عمره ، وكتب إلى بغداد وهو بالشغر بطرسوس التي بيلدسيس - وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ، ويرابطون بها ، رابط بها الإمام أحمد رضي الله عنه والسرى السقطي وغيرهما ، وتولى قضاها أبو عبيد ، وتولى قضاها أيضا صالح بن حنبل ، ولهذا ذكرت في كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيماً - فكتب من الشغر إلى نائبه ببغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب كتاباً يدعى الناس فيه إلى أن يقولوا : القرآن مخلوق ، فلم يجده أحد ، ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجده وإرساله إليه ، فأجاب أكثرهم ، ثم قيدوا سبعة لم يجيئوا ، فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيئا : الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه ، ثم أوصى إلى أخيه أبي اسحاق وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين ، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجارة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوا عليه ، وظهر مذهب النفاجة الجهمية وامتحنوا الناس ، فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء ، وعزلوه من الولايات ، ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتکروا

الأسرى يمتحنون الأسير ، فإن أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه .
وكتب قاضيهم أحمد بن أبي دؤاد على ستارة الكعبة (لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
العزيز الحكيم) لم يكتب (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

ثم ولـي الواـقـع واـشـتـدـ الـأـمـرـ ، إـلـىـ أنـ ولـيـ المـتـوـكـلـ فـرـفـعـ الـمـحـنـةـ وـظـهـرـتـ حـيـنـئـذـ
الـسـنـةـ ، وـبـسـطـ هـذـاـ لـهـ مـوـضـعـ آخـرـ .

وـالـمـقـصـودـ أـنـ أـئـمـةـ الـمـسـلـمـينـ لـمـ عـرـفـواـ حـقـيـقـةـ قـوـلـ الـجـهـمـيـةـ بـيـنـوـهـ حـتـىـ قـالـ
عـبـدـ اللـهـ بـنـ الـمـبـارـكـ : إـنـاـ لـنـحـكـيـ كـلـامـ الـيـهـوـدـ وـالـنـصـارـىـ وـلـاـ نـسـطـعـ أـنـ نـحـكـيـ كـلـامـ
الـجـهـمـيـةـ ، وـكـانـ يـنـشـدـ :

عـجـبـ لـشـيـطـانـ النـاسـ جـهـرـةـ إـلـىـ النـارـ وـاشـتـقـ اـسـمـهـ مـنـ جـهـنـمـ
وـقـيـلـ لـهـ : بـمـاـ يـعـرـفـ رـبـنـاـ ؟ـ قـالـ : بـأـنـهـ فـوـقـ سـمـوـاتـهـ عـلـىـ عـرـشـهـ بـائـنـ مـنـ
خـلـقـهـ ، قـيلـ لـهـ : بـحـدـ ؟ـ قـالـ : بـحـدـ .ـ وـكـذـلـكـ قـالـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ وـاسـحـاقـ بـنـ
ابـرـاهـيمـ بـنـ رـاهـوـيـهـ وـعـشـمـانـ بـنـ سـعـيدـ الدـارـمـيـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ أـئـمـةـ السـنـةـ .

وـحـقـيـقـةـ قـوـلـ الـجـهـمـيـةـ الـمـعـطـلـةـ هـوـ قـوـلـ فـرـعـوـنـ وـهـوـ جـحـدـ الـخـالـقـ وـتـعـطـيلـ كـلـامـهـ
وـدـيـنـهـ ، كـمـاـ كـانـ فـرـعـوـنـ يـفـعـلـ ، فـكـانـ يـجـحـدـ الـخـالـقـ جـلـ جـلـالـهـ وـيـقـولـ : (مـاـ عـلـمـتـ
لـكـمـ مـنـ إـلـهـ غـيـرـيـ) [القـصـصـ : ٣٨] وـيـقـولـ لـمـوـسـىـ (لـئـنـ اـتـخـذـتـ إـلـهـاـ غـيـرـيـ
لـأـجـعـلـنـكـ مـنـ الـمـسـجـوـنـيـنـ) [الشـعـرـاءـ : ٢٩] وـيـقـولـ (أـنـاـ رـبـكـمـ الـأـعـلـىـ)
[الـنـازـعـاتـ : ٢٤] وـكـانـ يـنـكـرـ أـنـ يـكـونـ اللـهـ كـلـمـ مـوـسـىـ أـوـ يـكـونـ لـمـوـسـىـ إـلـهـ فـوـقـ
الـسـمـوـاتـ ، وـيـرـيدـ أـنـ يـبـطـلـ عـبـادـةـ اللـهـ وـطـاعـتـهـ وـيـكـونـ هـوـ الـمـعـبـودـ الـمـطـاعـ ، فـلـمـاـ كـانـ
قـوـلـ الـجـهـمـيـةـ الـمـعـطـلـةـ النـفـاةـ يـؤـولـ إـلـىـ قـوـلـ فـرـعـوـنـ كـانـ مـتـهـيـ قـوـلـهـمـ إـنـكـارـ رـبـ
الـعـالـمـيـنـ ، وـإـنـكـارـ عـبـادـتـهـ ، وـإـنـكـارـ كـلـامـهـ حـتـىـ ظـهـرـواـ بـدـعـوـيـ التـحـقـيقـ وـالتـوـحـيدـ
وـالـعـرـفـانـ ، فـصـارـواـ يـقـولـونـ : الـعـالـمـ هـوـ اللـهـ ، وـالـوـجـوـدـ وـاـحـدـ ، وـالـمـوـجـوـدـ الـقـدـيمـ الـأـزـلـيـ
الـخـالـقـ هـوـ الـمـوـجـوـدـ الـمـحـدـثـ الـمـخـلـوقـ ، وـالـرـبـ هـوـ الـعـبـدـ ، مـاـ ثـمـ رـبـ وـعـبـدـ وـخـالـقـ
وـمـخـلـوقـ ، بـلـ هـوـ عـنـدـهـمـ فـرـقـانـ .

وـلـهـذـاـ صـارـواـ يـعـيـيـوـنـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ وـيـنـقـصـوـنـهـمـ ، يـعـيـيـوـنـ عـلـىـ نـوـحـ وـعـلـىـ اـبـرـاهـيمـ
الـخـلـيلـ وـغـيـرـهـماـ ، وـيـمـدـحـوـنـ فـرـعـوـنـ ، وـيـجـزـوـنـ عـبـادـةـ جـمـيـعـ الـمـخـلـوقـاتـ وـجـمـيـعـ

الأصنام ، ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا: إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وإن الله نفسه هو العابد وهو المعبود وهو الوجود كله ، فجحدوا رب وأبطلوا دينه وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسلا ، وتکلیمه لموسى وغيره .

وقد ضل في هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين والصدر القووني تلميذ ابن عربي والبلياني ، والتلمسانی وهو من حذاهم علمًا ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتي المحرمات .

وحدثني الثقة أنه قرأ عليه « فصوص الحكم » لابن عربي وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رأه يخالف القرآن ، قال : فقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له فمر على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعام ، فقال له رفيقه : هذا أيضا هو ذات الله !؟ فقال : وهل ثم شيء خارج عنها ، نعم الجميع في ذاته .

وهؤلاء حقيقة قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخالف أحداً فينافقه ، فلم يثبت الخالق وإن كان في الباطن مقرأ به ، وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق ، لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاء إلى الجحود والإإنكار كما قال : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبَصِّرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مِّنْ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » [النمل : ١٣ - ١٤] وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم على حق وأن الخالق هو المخلوق ، فإن كان قولهم هو قول فرعون لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد ، وهؤلاء إما جهال ضلال، وإما منافقون مبطونون للإلحاد والجحود ، ويوافقون المسلمين في الظاهر .

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم - وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً - أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له :

الشرف البلاسي ، يطلب منه المعرفة والعلم ، قال : فدعاني إلى هذا المذهب ، فقلت له : قولكم يشبه قول فرعون ، قال : ونحن على قول فرعون ، فقلت لعبد السيد : واعترف لك بهذا ؟ ! قال : نعم ، وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب ، فقلت له : هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون ، فحدثني بهذا ، فقلت له : ما ظنت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون ، لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج إلى بينة .

قال عبد السيد : فقلت له : لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون ، فقال : ولم قلت لأن موسى أغرق فرعون فانقطع واحتاج عليه بالظهور الكوني ، فقلت لعبد السيد وكان هذا قبل ان يسلم : نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعون .

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه وهم يحسبون أنه حق ، وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء لا يفهمون حقيقة قولهم ، بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض وابراهيم بن ادهم وأبي سليمان الداراني والسرى السقطي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله ، وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وأن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتي خاتم الأنبياء ، فإنهم متوجهة متكلفة يخرجون أقوال الفلسفة والجهمية في قالب الكشف ، وعند المتكلفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ليس هو ملكاً يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء في زعمهم فإنه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول .

وهم يعظمون فرعون ، ويقولون ما قاله صاحب « الفصوص » قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموسى لذلك ، قال : أنا ربكم الأعلى ، أي وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقرروا له بذلك ، وقالوا له : اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ، قال : فصح قول فرعون أنا ربكم الأعلى وإن كان فرعون عين الحق .

وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد ابن عبد الله رضي الله عنه قال : وإذا نهى الحمار ونباح الكلب سجدوا له ، وقالوا : هذا هو الله فإنه مظهر من المظاهر ، قال : فقلت له محمد بن عبد الله أيضاً مظهر من المظاهر فاجعلوه كسائر المظاهر وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه ، قال : فقالوا لي : محمد نبغضه فإنه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به ، قال : فتناقضوا في مذهبهم الباطل وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق ، قال لي : وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت في الصحيح^(١) عن النبي صلوات الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم صياغ الديكة فسلوا الله من فضلها ، فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً » فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقاً ، لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء ، وقد صنف كتاباً سماه « فك الأزار عن عنق الأسرار » ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس ، وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتوني وقهرتوني ونحو هذا ، لكن جرت لي قصة تعجبت منها مع شيخ منكم فإني تجليت له فقلت :

(١) رواه البخاري ٢٥١/٦ في بده الخلق : باب خير مال المسلم غنم يقع به شف العجلان ، ومسلم رقم ٤٧٢٩ في الذكر : باب استعجب الداعاء عند صياغ الديكة ، وأبي داود رقم (٥١٠٢) في الأدب : باب ما جاء في الديك والبهائم ، والترمذى رقم (٣٤٥٥) في الدعوات : باب ما يقول إذا سمع نهيق الحمار ، وأحمد في « المسند » ٣٠٧/٢ و ٣٢١ و ٣٦٤ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أنا الله لا إله إلا أنا ، فسجد لي ، فتعجبت كيف سجد لي ، قال هذا الشيخ فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلمها وأنت لم تعرف قصده ما رأى في الوجود اثنين ، وما رأى إلا واحداً ، فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذي سجد لإبليس لا يميز بين الرب وغيره ، بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربي نوحًا أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقيين ، وأنجاه ومن معه في السفينة ، وأهلك سائر أهل الأرض لما كذبوا ، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وإنهم ما عبدوا إلا الله ، وأن خطايهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله ، وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار ، كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وابراهيم وموسى وهارون وغيرهم ، ومدح عباد العجل وتنقص هارون ، وافتوى على موسى ، فقال : وكان موسى أعلم بالأمر من هارون ، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إيه ، وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في انكاره وعدم اتساعه ، فان العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء ، فذكر عن موسى أنه عتب على هارون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسع ذلك فأنكره ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء .

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهارون وعلى الله وعلى عباد العجل ، فان الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل انكاراً أعظم من انكار هارون ، وأنه أخذ بلحية هارون لما لم يدعهم ، ويتابع موسى لمعرفته^(١) قال تعالى : « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمٍ كَيْا مُوسَى * قَالْ هُمْ أُولَئِ عَلَى أَثْرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبَّ لِتَرْضَى * قَالْ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدَكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَيْ قَوْمِهِ غَضِبَانَ أَسْفًا قَالَ يَا قَوْمَ الَّمْ يَعْدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا أَفْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكُنَا حُمُّلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةٍ

(١) لعلها زائدة .

الْقَوْمُ فَقَدَنَاهَا فَكَذَلِكَ الْقَوْمُ السَّاِمِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُنَا مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمٌ إِنَّمَا فَيْتَشَاءُ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ، فَاتَّبِعُونِي وَاطِّبِعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ تَبْرَحْ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتُهُمْ ضُلُّوا * أَلَا تَتَبَعَنَ أَفْعَصِيَتْ أَمْرِي * قَالَ يَا بَنُؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي حَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَقْتَ بَيْنَ بَنِي اسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقِبْ قَوْلِي »

[طه : ٨٣ - ٩٤].

قلت لبعض هؤلاء : هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه ؟ فقال : لا بل يخالفه ، قلت : فاختر لنفسك إما القرآن وإما كلام ابن عربي . وكذلك قال عن نوح قال : لو أن نوحًا جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه ، أي ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم أسرار - إلى أن قال - : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالداعو ، لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية ادعوا إلى الله ، فهذا عين المكر على بصيرة ، فنبه أن الأمر كله لله ، فأجابوه مكرًا كما دعاهم ، فجاء المحمدي وعلم أن الدعوة إلى الله ما هي من حيث هويته ، وإنما هي من حيث أسماؤه فقال : « يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا » [مريم : ٨٥] ، فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم ، فعرفنا أن العالم كان تحت حيطة اسم الإلهي أوجب عليهم أن يكونوا متقيين ، فقالوا في مكرهم « لَا تَدْرُنَ الْهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَ وَدًا وَلَا سُواعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » [نوح : ٢٣] ، فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق في كل معبد وجهاً يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، كما قال في المحمديين « وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالوَالَّدِينِ إِحْسَانًا » [الإسراء : ٢٣] أي حكم ، فالعارف يعرف من عبد ، وفي أي صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ، مما عبد غير الله في كل معبد .

وهو دائمًا يحرف القرآن عن مواضعه ، كما قال في هذه القصة : مما خطاياهم فهي التي خطت بهم ، فغرقوا في بحار العلم بالله ، وهي الحيرة ، فأدخلوا ناراً في

عين الماء في المحمديين ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجَرَتْ﴾ [التكوير : ٦] سجرت النور: أو
 قدته ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى
 الأبد ، قوله : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ﴾ بمعنى أمر وأوجب وفرض ، وفي
 القراءة الأخرى : ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إيه ، فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لا
 تعبدوا إلا إيه ، وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبد هو الله ، وإن أحداً ما
 عبد غير الله قط ، وهذا من أظهر الفريضة على الله وعلى كتابه وعلى دينه ، وعلى أهل
 الأرض ، فإن الله في غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون
 الشيطان كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ
 عَدُوٌ مُّبِينٌ * وَأَن اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيرًا أَفَلَمْ
 تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس : ٦٠ - ٦٢] وقال تعالى عن يوسف إنه قال : ﴿يَا صَاحِبَيِ
 السَّجْنِ أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً
 سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَّرَ أَن لَا تَعْبُدُوا
 إِلَّا إِيَاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٣٩ - ٤٠] وقال
 تعالى : ﴿وَجَاءُونَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
 يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِرُونَ مَا هُمْ فِيهِ
 وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغْيِرُ اللَّهُ أَغْيِبُكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
 [الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠] وقال تعالى عن الخليل : ﴿إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا
 لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
 فَاتَّسْعِنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
 عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمْسِكَ عَذَابًا مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيَا * قَالَ
 أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ الْهَتَّى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ
 عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَرْلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوكُمْ
 رَبِّي عَسَى أَن لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُنَّا
 لَهُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانٍ صِدْقٍ
 عَلَيًّا﴾ [مريم : ٤٢ - ٥٠].

فَهُوَ سَبَّانُهُ يَقُولُ : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ وَهُؤُلَاءِ
الملحدُون يَقُولُونَ : مَا عَبَدْنَا غَيْرَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعْبُودٍ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَاتَّخَذُ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلَيْهِمْ عِجَالًا جَسَدًا لَهُ خُوارُ الْأَمْ
يَرَوُا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ
وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إِلَى
قولِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّنَاهُمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ
نَجِزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الْأَعْرَافَ : ١٤٨ - ١٥٢] .

قال أبو قلابة : هي لكل مفتر إلى يوم القيمة أن يذله الله .

والجهمية النفاة كلهم مفترون ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل ، إنما يقود
قولهم إلى فريدة على الله ، وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله ، فإن القائلين بأن
وجود الخالق هو وجود المخلوق ، هم أعظم افتراءً ممن يقول: إنه يحل فيه ، وهؤلاء
يجهلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد ، وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق ،
إن هذا إنما يكون إذا كان شيطان متباهياً ثم اتحد أحدهما بالأخر ، كما يقوله
النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناصوت ، وهذا إنما يقال في شيء معين ، وهؤلاء
عندتهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده .

وَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ تَنَاقْضًا فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا ثَمَّ غَيْرُ وَلَا سُوَى ، وَتَقُولُ
السَّبِيعِيَّةُ : لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ : بَدَلَ قَوْلَ الْمُسْلِمِينَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هُؤُلَاءِ
الْمَحْجُوبُونَ لَا يَرَوْنَ هَذَا ، فَإِذَا كَانَ مَا ثَمَّ غَيْرُ وَلَا سُوَى فَمِنَ الْمَحْجُوبِ وَمِنَ
الْحَاجِبِ ، وَمِنَ الَّذِي لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ وَعَمَّا حَجَبَ ، فَقَدْ أَثْبَتُوا أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ : قَوْمٌ
مَحْجُوبُونَ ، وَقَوْمٌ لَيْسُوا بِمَحْجُوبِينَ ، وَأَمْرًا انْكَشَفَ لِهُؤُلَاءِ وَحْجَبَ عَنْ أُولَئِكَ ،
فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ : مَا ثَمَّ اثْنَانٌ وَلَا وَجْدَانٌ ، كَمَا حَدَثَنِي الثَّقَةُ أَنَّهُ قَالَ لِلتَّلَمْسَانِيَّ :
فَعَلَى قَوْلِكُمْ لَا فَرْقَ بَيْنَ امْرَأَ الرَّجُلِ وَأَمْهِ وَبِنْتِهِ ، قَالَ : نَعَمْ الْجَمِيعُ عَنْدَنَا سَوَاءَ ،
لَكِنْ هُؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ ، قَالُوا : حَرَامٌ ، فَقُلْنَا : حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، فَقَيْلَ لَهُمْ : فَمِنْ
الْمَخَاطِبِ لِلْمَحْجُوبِينَ أَهُوَهُمْ أَمْ غَيْرُهُمْ ، فَإِنْ كَانُوا هُمْ فَقَدْ حَرَمُوا نَفْسَهُ لَمَّا زَعَمُ
أَنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ دُونَهِ ، وَإِنْ كَانُوا غَيْرِهِ فَقَدْ أَثْبَتُ غَيْرِيْنَ وَعَنْدَهُمْ مَا ثَمَّ غَيْرُ ، وَهُؤُلَاءِ

اشتبه عليهم الواحد بال النوع بالواحد بالعين ، فإنه يقال : الوجود واحد ، كما يقال : الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة ، أي يعني واحد كلي ، وهذا الكلي لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج ، فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج ثم ظنوه هو الله .

وليس في الخارج كلي مع كونه كلياً وإنما يكون كلياً في الذهن ، وإذا قدر في الخارج كلي فهو جزء من المعيينات وقائم بها ، ليس هو متميزاً قائماً بنفسه ، فحيوانية الحيوان وانسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة هي صفة له ، ويتمكن أن يكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجردأ عن العيان على رأي من أثبت المثل الأفلاطونية ، فثبتت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ، ويدعى أنها قديمة أزلية مثل انسانية مجردة وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل ، وهذا الذي جعله مجردأ هو مجرد في الذهن وليس في الخارج كلي مجرد ، وإذا قدر ثبوت كلي مجرد في الخارج وهو مسمى الوجود ، فهذا يتناول وجود المحدثات كلها ، كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعاً شيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حي علیم قدیر ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لا بد أن يكون حياً علیماً قدیراً ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم لو قدر أن هذا هو الحال فهذا غير الأعيان الموجدة المخلوقة فقد ثبت وجودان ، أحدهما غير الآخر ، وأحدهما محدث مخلوق ، فيكون الآخر الحال غير المخلوق ، ولا يمكن جحود وجود الأعيان المعينة ، ولكن الواحد من هؤلاء قد يغيب عن شهود المغيبات ، كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم نفسه وفيه ، وليس كذلك ، فإن ما عدم وفني شهوده له وعلمه به ونظره إليه ، فالمعدوم الفاني صفة هذا الشخص ، وإلا فال موجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علمًا بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهوداً للعدم ، ولكن هذه الحال يعتري كثيراً من السالكين ، يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات ، وقد يسمون هذا فناءً واصطلاماً ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات ، لا أنها في نفسها فنت ، ومن قال : فني ما لم يكن وبقي ما لم يزل ، فالتحقيق إذا كان صادقاً أنه فني شهوده لما لم يكن ونفي شهوده لما لم يزل ، لا أن

ما لم يكن فني في نفسه ، فإنه باق موجود ، ولكن يتوهمن إذا لم يشهدوه أنه قد عدم في نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول ، فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ، ويستغرق في ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفني ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وأن نفسه فنيت حتى يتوهם أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله .

ومن هذا الباب غلط أبي يزيد ونحوه حيث قال : ما في الجبة إلا الله ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع . وبين أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور : أحدها أنه يفني بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكيل عليه عن محبة ما سواه وطاعته وخشيته ورجائه والتوكيل عليه ، وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فقد فني من قلبه التأله لغير الله ويفي في قلبه تأله الله وحده ، وفني من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكيل على غير الله ، ويفي في قلبه حب الله وخشية الله والتوكيل على الله وهذا الفناء يجامع البقاء ، فيخلِّي القلب عن عبادة غير الله مع تجلي القلب بعبادة الله وحده ، كما قال ﷺ لرجل : « قل أسلمت الله وتخليت »^(١) وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفي مع الإثبات ، نفي إلهية غيره مع إلهيته وحده ، فإنه ليس في الوجود إله إلا الله ، ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله ، فيجب أن يكون هذا ثابتاً في القلب ، فلا يكون في القلب من يأله القلب ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده ، إذ كان ليس ثم إله إلا الله وحده .

وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبد سواه ، ولمن عبدهم ، قال تعالى عن الخليل عليه السلام : ﴿وَإِذْ قَالَ ابْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِيْنِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَّةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨].

(١) هو جزء من حديث طويل رواه النسائي ٥/٥ في الزكاة : باب وجوب الزكاة ، و ٥/٨٣ في الزكاة : باب من سأل بوجه الله عز وجل ، وأحمد في « المسند » ٥/٥ من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، وإسناده حسن .

وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٧].

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي ابْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَأْوُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [المتحنة : ٤].

قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء : قول الخليل : إنني براء مما تعبدون ، ممن تبرأ الخليل ؟ أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط ، والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ، وقد جعل الله لنا فيه وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي ابْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَأْوُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلُ ابْرَاهِيمَ لَا يَبْرُئُ لَأَسْتَغْفِرَنَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [المتحنة : ٤ - ٦].

وقد قال ﷺ : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل »^(١) وهذا تصديق قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُتَرَفَّوْنَ ﴾ [يونس : ٣٢] وقال سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ ﴾ [القصص : ٨٨].

(١) رواه البخاري ٤٤٨/١٠ في الأدب : باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب أيام الجاهلية ، وفي الرقاق : باب الجنـة ، أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ومسلم رقم (٢٢٥٦) في الشعر ، والترمذـي رقم (٢٨٥٣) في الأدب : باب ما جاء في اثنـاءـ الشـعـر ، وأحمد في « المسند » ٣٩٣/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال طائفة من السلف : كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًاٌ آخَرٌ ﴾ [القصص : ٨٧ - ٨٨] والإله هو المألوه أي المستحق لأن يؤله ، أي يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبد سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول ، مثل لفظ الركاب والحمل بمعنى المركوب والمحمول ، وكان الصحابة يرتجون في حفر الخندق يقولون :

هذا الحمال لا حمال خير * هذا أبر ربنا وأطهر
وإذا قيل هذا هو الإمام فهو الذي يستحق أن يؤتم به ، كما قال تعالى لابراهيم : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] فعهده بالإمامية لا ينال الظالم ، فالظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ولا يركن إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود : ١١٣] فمن اثتم بمن لا يصلح للإمامية فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل مع الله إلها آخر وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل ، وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية ، فالإله هو القادر وهو الرب ، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون . فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور ، لكن إمامهم ابن عربي يقول : الأعيان ثابتة في العدم وجود الحق فاض عليها ، فلهذا قال : فنحن جعلناه بمالوهيتنا إلها ، فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلها لها حيث كانوا مألوهين ، ومعنى مألوهين عنده مربوبين ، وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم ، وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً .

والتحقيق أن الله خالق كل شيء ، والمعدوم ليس بشيء في الخارج ، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ، ويكتبه وقد يذكره ويخبر به ، فيكون سيباً في العلم

والذكر والكتاب لا في الخارج ، كما قال : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢].

والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه ، فهو الذي خلق ، خلق الإنسان من عقل ، وهو الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، ولو قدر أن الإله بمعنى الرب فهو الذي جعل الرب مربوياً ، فيكون على هذا هو الذي جعل المأله مأله ، والمربوب لم يجعله رباً بل ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته ، وأخبر بها ، كان قد اتخذ الله رباً ولم يبغ رباً سوى الله ، ولم يتخذ رباً سواه ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبَّاً وَهُوَ ربُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٦٤]. وقال تعالى : ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ١٤] وقال : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَجَنَّبُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيُّمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٨٠].

وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق ، لا إله غيره ، فإذا عبده الإنسان فقد وحده ، ولم يجعل معه إليها آخر ولا اتخاذ إليها غيره ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٣] وقال تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَمْذُولاً﴾ [الإسراء : ٢٢] وقال إبراهيم لأبيه آزر : ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٧٤].

فالمحبوب ليس بيده في نفسه لكن عابده اتخاذها وجعلها إليها ، وسماه إليها ، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه ، بل يضره كما أن الجاهل إذا اتخاذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلاً ، فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتى ولا يقضى ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إليها يعبد ويدعى ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد .

ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعي ، أو يسمع ولكن لا يستجيب له ، فإن غير الله لا يستقبل بفعل شيء ألبته ، وقد قال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ

دُونَ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ ﴿سِيَّا : ٢٢ - ٢٣﴾

غير الله لا مالك لشيء ولا شريك في شيء ، ولا هو معاون للرب في شيء ، بل قد يكون له شفاعة إذا كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاعة أبداً ، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهًا معبودًا ، كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر .

فصل

وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة وتلقיהם عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ، فإن الرسول بعث بالبيانات والهدى، بين الأدلة العقلية ، ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتكلفون يقولون : إنه لم يفدهم علمًا بخبره ولا بدلاته ، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة ، فيعتقدوا في الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً وباطلاً . وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به ، لكن كذباً للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علمًا ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر عنه فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به ، والمتكلمون الذين يقولون : إنهم لا يخبرون إلا بصدق ولكن يسلكون في العقليات غير طريقهم مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف بهؤلاء الملاحدة المغتربين ، ولهذا لا يعنون بالقرآن ولا تفسيره ولا بال الحديث وكلام السلف ، وإن تعلموا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمورو به ، ليعيشوا بينهم بذلك لا لاعتقادهم موجبه في الباطن .

وهذا بخلاف طوائف المتكلمين ، فإنهم يعظمون القرآن في الجملة وتفسيره مع ما فيهم من البدع .

ولهذا لما استولى التتار على بغداد ، وكان الطوسي منجماً لهولاكو استولى على كتب الناس الوقف والملك ، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدّها ، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية ، فهذه عنده هي الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً، لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية ، حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا : يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي ، ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمين إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمثابة شعراء الجاهلية أصحاب المعلمات السبع ونحوهم من حطب النار .

فصل

أول التفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل سيدنا عثمان وافتراء المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج وقالوا : لا حكم إلا لله ، وفارقوا جماعة المسلمين ، فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم فقتلوا ابن خباب ، وقالوا : كلنا قتلة ، فقاتلهم علي ، وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب أتباعه ، لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن ، كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك ، فضلوا ، فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً فلم ينقادوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده ، بل قالوا : إن عثمان وعلياً ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتکفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين :

احداهما : إن هذا يخالف القرآن .

والثانية : أن من خالف القرآن يكفر ، ولو كان مخطئاً أو مذنباً معتقداً للوجوب والحرير .

وبمازائهم الشيعة غلوا في الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع إليهم في جميع ما جاءت به الرسل ، فلا يرجعون لا على القرآن ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوماً ، وانتهى الأمر إلى الاتمام بإمام معدوم لا حقيقة له ، فكانوا أصل من الخوارج ، فإن أولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لا يرجعون إلى شيء بل إلى معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يمسكون بما يقل لهم عن بعض الموقت فيمسكون بقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، وهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون ، فحديثهم من أصح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث ، ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون : لا نقتل إلا تحت راية إمام معصوم ، والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة مثل القرامطة والباطنية وغيرهم ، ولهذا أوصت الملاحدة مثل القرامطة الذين كانوا في « البحرين » وهم من أكفر الخلق ، ومثل قرامطة المغرب ومصر وهم كانوا يستترون بالتشيع ، أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع ، فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

والمقصود أن النبي ﷺ قال : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله » فحضر على كتاب الله ثم قال : « وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، ثلاثة »^(١) فوصى المسلمين بهم ، لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمين إليهم ، فانتهت الخوارج كتاب الله وانتهت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فإن الخوارج خالفوا

(١) رواه مسلم رقم (٢٤٠٨) في فضائل الصحابة : باب من فضائل علي رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٤/٣٦٧ والدارمي ٢/٤٣٢ و ٤٣١ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ، ورواه أيضاً أبو أحمد في « المسند » ٣/١٧ و ٥٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

السنة التي أمر القرآن باتباعها ، وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية ﴿ وَمَا يُصلِّي بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصِّلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٦ - ٢٧] وصاروا يتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه غير تأوله من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ في العلم ولا اتباع للسنة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن ، وأما مخافة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت في موضع .

فصل

ثم حدث في آخر عصر الصحابة القدريه ، فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي أمره ونهيه وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالقه ، ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهي مسائل الأسماء والأحكام وسموا محكمة لخوضهم في التحكيم بالباطل ، وكان الرجل إذا قال : لا حكم إلا لله ، قالوا : هو محكم ، أي خائن في حكم الله ، فخاض أولئك في شرع الله بالباطل .

وأما القدريه فخاضوا في قدره بالباطل ، وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر ينافق الشرع ، فصاروا حزبين : حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، واتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ، ففرقوا بين الكتاب والسنة وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

وكذلك القدريه فصاروا حزبين حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه أو ينفي بعضه ، وحزباً يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ، ويقول : لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر ، الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه

وأعداؤه ، وكذلك ما ذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه ، لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئه، يأمر بهذا، وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام ، كما أن أولئك وإن أقرروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قادر ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليماً ، وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ما شاء كان وما لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالاً لما يشاء .

وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث ، وشركاء خلقوا كخلقه ، كما فعلت المجوس، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونفيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً ، وإلا لزم أن يكون بخيلاً ، كما أن القدرة المجبرة قالوا : لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلا بتسيفه وتجميره .

فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته ، أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقاً ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا﴾ الآية [١٤٨] الأنعام : وهؤلاء متنهى توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ، فاما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهي ، ولكون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه ، فهم ينكرونها ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم وأكثر شركاً وتجميراً من المعتزلة ، ومتنهى متكلميهم وعبادهم تجمير عبادة الأصنام ، وإن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستتبع سيئة كما ذكر ذلك صاحب «منازل السائرين» .

وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي صنف فيها مصنفاً ، وابن عربي وابن سبعين وأمثالهما يصرحون بجواز عبادتها ، وبالإنكار على من أنكر ذلك ، وهم متناقضون في ذلك .

فالقدرة أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته ، إذ لو كان قادراً لفعل غير

ما فعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر ، وقالوا : يثبت حكمته كما يثبت حكمه ، لأن نفي ذلك يوجب السفة والظلم ، وهو متزه عنه ، بخلاف ما لم يقدر عليه فإنه معدور إذا لم يفعله فلا يلام عليه .

وقال المجبرة : بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعل لحكمة ، لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو متزه عن الحاجة ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل وليس في الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به ، وقبح ينبغي النهي عنه ، ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شيء وينهى عن كل شيء .

ثم من حقهم أنكر الشرع بالكلية وأنكر النبوات ، مع أنه مضطرك إلى أن يأمر بشيء وينهى عن شيء ، فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يجدون عنه محيراً ، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره ، وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع ، فيستحق عذاب الدنيا والآخرة .

وأما من كان منهم مقرأً بالنبوة فأنكر الشرع في الباطن . وقال : العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، فصار منافقاً يظهر خلاف ما يطن ويقول الشرع لأجل المارستان ، ولهذا يسمون باطنية كما سموا الملاحدة باطنية ، فإن كلامهما يطن خلاف ما يظهر ، يبطون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهي .

فمتى الجهمية المجبورة إما مشركون ظاهراً وباطناً ، وإما منافقون فيبطون الشرك ، ولهذا يظنون بالله ظنسوء ، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه ، كما قال تعالى ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦] ، وهم يعقلون بقوله : ﴿ لَا يُسْئِلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ، وبأنه يفعل ما يشاء ، ولذلك لما ظهر المشركون التيار وأهل الكتاب كثروا في عبادهم وعلمائهم من صار مع المشركين وأهل الكتاب وارتدى عن الإسلام إما باطنًا وظاهرًا ، وإما باطنًا وقال : إنه مع الحقيقة رمع المشيئة الإلهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم

للرسل عما[لا] يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة وموالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول في دينهم ، ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول .

فتارة يأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور ، وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار ، لكون المسلمين قد عصوا ، ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراً لهم من الرجال المسلمين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق يقتضي أنهم أولياء الله ، صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب : حزب يكذبون بوجود هؤلاء ، ولكن عاينهم الناس ، وثبت ذلك عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه ، [و] هؤلاء إذا رأوه أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم ، وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء ، وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجاً عن دائرة الرسول ، فقالوا : يكون الرسول هو ممداً للطائفتين لهؤلاء وهؤلاء ، فهو لاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوزون لاتباع دين غير دينه وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن ، وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الإنس فهو من جنسهم شيطان من شياطين الإنس أعداء الأنبياء ، كما قال تعالى : «وَكُلُّكُمْ جَعَلْنَا لِكُلِّنَّبِي عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ يُوَحِّي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» [الأنعام : ١١٢] .

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأصله قول الجهمية الذين يسعون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم إنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى ، فظهر أن اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار .

وحضر عندي بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الإسلام ، وحدثني بفصول

كثيرة ، فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول : فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان في بغداد بضعة عشر بغي ، فالجيش الكفار المشركون الذين جاؤوا كانوا شرًّا من هؤلاء ، فإن هؤلاء كن يزنين ، اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات ألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم وردوهم عن الإسلام إلى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ودين النصارى ، وتعظيم الصليب ، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصي ، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى بهذا ، فتبين له وقال : لا والله .

وأخبرني عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تكرهم على الردة في الباطن وتعذبهم أن لم يرتدوا .

فقلت : كان هذا لضعف إيمانهم وتوحيدهم ، والمادة التي يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل أنهم رجال من رجال الغيب الإنس وككلهم الله بتصريف الأمر .

فيبيت لهم أن رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى : «وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسَانِ يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهْقَانًا» [الجن : ٦] ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه ، فإن الإنسان يؤنسون أي يشهدون ويرون ، إنما يتحجب الإنساني أحياناً لا يكون دائماً محتاجاً عن أبصار الإنسان ، بخلاف الجن فإنهم كما قال الله «إِنَّهُ يَرَأُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ» [الأعراف : ٢٧] .

وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران أن هولاكو ملك المشركين لما دخل بغداد رأى ابن السكران شيخاً محلوق الرأس على صورةشيخ من مشايخ الدين والطريق آخذًا بفرس هولاكو ، قال : فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكونشيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين ، فقلت : يا هذا أو كلمة نحو هذا ، فقال : تأمر بأمر ، أو قال له : هل

تفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر ، فقال : نعم بأمر ، فسكت ابن السكران وأقעהه هذا الجواب ، وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله ، وأن من قال : حدثني قلبي عن ربي ، فإن الله هو يناجيه ، ومن قال : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت هو كذلك ، وهذا أضل من ادعى الاستغناء عن الأنبياء وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

وجواب هذا أن يقال له : بأمر من تؤمر ، فإن قال : بأمر الله ، قيل : بأمر الله الذي بعث به رسوله وأنزل به القرآن ، أم بأمرٍ وقع في قلبك ، فإن قال : بالأول ظهر كذبه ، فإنه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتي بالكافر المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسببهم وأخذ أموالهم ، لأجل ذنوب فعلوها ، ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ويضرب فيها بالنواقيس ، ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع ، ويعظم النجسية علماء المشركين وقساوسة النصارى وأمثال ذلك ، فإن هؤلاء أعظم عداوة لمحمد ﷺ وهو من جنس مشركي العرب الذين قاتلوه يوم أحد ، وأولئك عصاة من عصاة أمهه ، وإن كان فيهم منافقون كثيرون ، فالمنافقون يبطون نفاقهم .

وإن قال بأمر وقع في قلبي ، لم يكذب ، لكن يقال : من أين لك أن هذا رحماني ، ولم لا يكون الشيطان هو الذي أمرك بهذا ، وقد علمت أن ما يقع في قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان ، فإن رجع إلى توحيد الربوبية وأن الجميع بمشيئة ، قيل له : فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب هو بالأمر ، ولا ريب أنه بالأمر الكوني القدري ، فجميع الخلق داخلون تحته ، لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول ، فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن ، وهو مستوجب لعذاب الله في الدنيا والآخرة ، وهو عابد لغير الله ، متبع لهواه ، وهو من قال الله فيه : «لَمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» [ص : ٨٥] ومن قال فيهم الشيطان : «فَبِعِزَّتِكَ لَا غُوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ» [ص : ٨٢ - ٨٣] قال الله : «إِنَّ عَبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» [الحجر : ٤٢] ، وقال تعالى : «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ

آمُنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّهُنَّ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠ - ٩٩﴾ [النحل : ٩٩ - ١٠٠] وقال تعالى : «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [الأعراف : ٢٧ - ٢٨] .

فكيف تأمر بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين وقتل الكفار للMuslimين ، هذا لا يأمر الله به ، كما لا يأمر بالفحشاء ، فإن هذا من أفحش الفواحش ، إذا جعلت الفاحشة اسمًا لكل ما يعظم قبحه ، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة في الفحشاء .

وكان أيضًا بالشام بعض أكابر الشيوخ بيعملون الشيخ عثمان شيخ دير ناعس يأتيه خفير الفرنج النصارى راكباً أسدًا ، ويخلو به ويناجيه ، ويقول : يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم فيعذرها عثمان وأتباعه في ذلك ويررون ان الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل ، كما عذر ابن السكران وأمثاله لخفراء المشركين التتار . والجواب لهذا كالجواب لذلك ، يقال له : وكلك الله تعالى بهذا ؟! الذي أنزل على لسان نبيه الدين أمر أن يوالى المسلمين وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء ، بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت ، فهل هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم ، فإن قال هذا ، ظهر كذبه ، وإن قال : بل هو أمر ألقى في قلبي ، لم يكذب ، وقيل له : فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسلاه ، ولكنه من الأمر الذي هو كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا .

ومن هؤلاء من يظن أن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله ، ولا ينجي عليهم اتباع الرسول ، كالملائكة الموكلة ببني آدم المعقبات .

فقلت لشيخ كان من شيوخهم : محمد أرسل إلى الثقلين الإنس والجن ولم يرسل إلى الملائكة ، فكل إنسي أو جنی خرج عن الإيمان به فهو عدو الله لا ولی الله بخلاف الملائكة .

ثم يقال له : الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصي ، ولا على قتال المسلمين ، وإنما يعاونهم على ذلك الشياطين ، ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم ، فإن ذلك ليس بمعصية ، فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين ، لا من جنس الملائكة ، وكان هذا الشيخ هو أبوه من خفراء الكفار ، وكان والده يقال له : محمد الخالدي نسبة إلى شيطان كان يقربه يقال له : الشيخ خالد ، وهم يقولون : إنه من الإنس من رجال الغيب .

وحدثني الثقة عنه أنه كان يقول : الأنبياء ضيعوا الطريق ، ولعمرى لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الإنس والجن ، وهؤلاء المشايخ الذين يحبون المسلمين ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار ، ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركون بهم وهم في أصل ضلاله ، وهو أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية ، ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيَّضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين خوارق السحراء والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجردة ، وهؤلاء كلهم يشترون في هذا المذهب فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه ، بل يجعلون كل ما قدره وقضاءه ، فإنه يحبه ويرضاه ، فتبقى جميع الأمور عندهم سواء ، وإنما يتميز بنوع من الخوارق ، فمن كان له خارق من أولياء الله وخضعوا له إما اتباعاً له ، وإما موافقة له ومحبة ، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه ، إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الإيمان ما يعرفون به المعروف وينكرون به المنكر في هذا الموضوع .

وقد ثبت في «الصحيح»^(١) عن النبي ﷺ أنه قال : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع بقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وفي رواية لمسلم « من جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وميت الأحياء الذين لا يعرفون معرفةً ولا ينكرون منكراً .

وفي حديث حذيفة الذي في « صحيح مسلم »^(٢) أن الفتنة تعرض على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تبقى القلوب على قلبين ، قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، وقلب أسود مرباد [كالكُوز مُجَخِّيَا] لا يعرف معرفةً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجودهم لا بالأمر والنهي متلهاتهم اتباع أهوائهم **«وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَنْتَ بَعْدَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ»** القصص : ٥] لا سيما إذا كانت حقيقتهم هي قول الجهمية المجبرة ، فرأوا أن جميع الكائنات اشتربت في المشيئة ولم يميز بعضها عن بعض ، فإن الله يحب هذا ويرضاه ، وهذا يبغضه ويستخطه ، فإن الله يحبالمعروف ويبغض المنكر ، فإذا لم يفرقوا بين هذا وهذا نكت في قلوبهم نكت سود ، فسود قلوبهم ، فيكون المعروف ما يهونه ويحبونه ويجدونه ويدوونه ، ويكون المنكر ما يهونه بغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمسركين الذين كانوا **«عَنِ التَّذَكِّرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانُوكُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»** [المدثر : ٤٩ - ٥١] ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن

(١) رواه مسلم رقم (٤٩) و(٥٠) في الإيمان : باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأحمد في «المسند» ١٠/٣ و٤٩ و٥٢ و٥٣ و٥٤ و٩٢ والترمذني رقم (٢١٧٣) في الفتنة : باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو بالقلب ، وأبي داود رقم (٤٣٤٠) في الملائم : باب الأمر والنهي ، ورقم (١١٤٠) في صلاة العيددين : باب الخطبة يوم العيد ، والنسائي ١١١/٨ و١١٢ في الإيمان ، باب تفاصيل أهل الإيمان ، وابن ماجة رقم (٤٠١٣) في الفتنة : باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم رقم (١٤٤) في الإيمان : باب بيان أن الإسلام بدء غريباً وسيعود غريباً .

والشرع ، كما تنفر الحمر المستنفرة التي تنفر من الرماة ، ومن الأسد ، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا .

وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد يقول لمن رأه من هؤلاء كاليونسية والاحمدية : يا خنازير ! يا أبناء الخنازير ! ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحْفًا مُنَشَّرًا﴾ [المدثر : ٥٢] .

كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه ، فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةً قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول القدرة الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة ، ولهذا لم يكن هؤلاء مظہرين لهذا في زمن السلف ، بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم ، فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ، ومتناههم الشرك وتکذیب الرسل ، وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المغض من المشركين وأهل الكتاب ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن القدرة المجبرة من جنس المشركين ، كما أن النافية من جنس المجروس ، وأن المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الأمر ، والنافية تنفي القدرة العامة والمشيئة التامة ، وتزعم أنها تثبت الحكمة والعدل ، وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط في موضع .

وأولئك يتعلّقون بقوله : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنباء : ٢٣] والله يفعل ما يشاء ، وهذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله ، بل بين سبحانه أنه يفعل ما يشاء ، فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً ، بل هو قادر على فعل ما يشاء ، بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن

شت ، فإن الله لا مكره له ، ولكن ليزعم المسألة ^(١) وذلك أنه إنما يقال أفعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرهاً ، فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه ، والله تعالى لا مكره له ، فلا يفعل إلا ما يشاء .

فقوله تعالى : إن الله يفعل ما يشاء ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء ، وهذا رد لقول القدريّة النفاذه الذين يقولون : إنه لم يشا كل ما كان ، بل لا يشاء إلا الطاعة ، ومع هذا فقد شاءها ولم يكن من عصاه ، وليس هو قادرًا عندهم على أن يجعل العبد لا مطيناً ولا عاصياً .

فهذه الآيات التي تحتاج بها المجرة تدل على فساد مذهب النفاذه ، كما أن الآيات التي يحتاج بها النفاذه التي تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة ، وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ، ونحو ذلك يدل على فساد قول المجرة ، وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين ، بل ما تحتاج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى ، وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في « المسند » وغيره وبعضه في « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ « انه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر وهذا يقول ألم يقل الله كذا ، وهذا يقول : ألم يقل الله كذا ، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان ، فقال : « أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم ، أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » ^(٢) وللهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا .

(١) رواه البخاري ١١٨/١١ في الدعوات : باب ليزعم المسألة فإنه لا مكره له ، وفي التوحيد : باب في المشتبه والارادة ، ومسلم رقم (٢٦٧٩) في الذكر والدعا : باب العزم بالدعاء ولا يقل : إن شئت ، و« الموطا » ٢١٣ في القرآن : باب ما جاء في الدعاء ، والترمذى رقم (٣٤٩٢) في الدعوات : باب رقم ٧٩ ، وابو داود رقم (١٤٨٣) في الصلاة : باب الدعاء . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ١٧٨/٢ و ١٩٥ - ١٩٦ ، وابن ماجة رقم (٨٥) في المقدمة : باب في القدر ، من حديث عبد الله بن عمر وبين العاص رضي الله عنهم ، وإسناده حسن ، ورواوه مسلم مختصراً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم ، رقم (٢٦٦٦) في العلم : باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ، ورواوه الترمذى رقم (٢١٣٤) في القدر : باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواوه الطبراني في « الكبير » من حديث أبي سعيد الخدري وأنس رضي الله عنهم ، كما في « مجمع الزوائد » ١/١٥٦ ، وهو حديث صحيح بشواهده .

فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره، لم يؤمن بها ، بل آمن بما يحتج هو به ،
وحضار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكره ببعض .

وهذا حال أهل الأهواء ، هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب متفقون
على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال ،
فصاروا كما قال عن أهل الكتاب : «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا
مِنْ ثَاقِبِهِمْ فَنَسُوا حَطَّاً مِمَّا ذُكِرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»
[المائدة : ١٤] .

فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، إذ لم يبق هنا
حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم زيراً كل حزب بما لديهم فرجون ،
وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول ، وهو ما تمسكوا به من
شرعه ، مما أخبر به وما أمر به ، وأما ما ابتدعوه فكله ضلاله كما قال ﷺ : «إِيَاكُمْ
ومحدثات الأمور فِإِنْ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالٌ»^(١) . وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما
أخذوا به من الشريعة ، يجعلون تلك هي الأصول العقلية ، كالقدرة المجردة
والنفاة ، فكلما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الأصول وهو الذي يسمونه العقليات
أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع ، فالمعتزلة يجعلون العقليات هي الخبريات
والأمراء جميعاً ، فالواجبات الشرعية ، لكن يقولون أيضاً: إن الشرع أوجبه ، ولكن
لهم فيها تخليل ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه في الخبريات ، كائيات حدوث العالم بطريقة الاعراض
واستلزمها للأجسام ، وهم ينفون الصفات والقدر ، ويسمون ذلك التوحيد والعدل .

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفياً منهم ، فإنهم ينفون الأسماء مع

(١) رواه أحمد في «المسند» ١٢٦/٤ وابو داود رقم (٤٦٠٧) في السنة : باب في لزوم السنة ،
والترمذني رقم (٢٤٧٨) في العلم : باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدع ، والدارمي رقم (٩٦) في
المقدمة : باب اتباع السنة ، وابن ماجه رقم (٤٢) في المقدمة : باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، من حديث
العرباض بن سارية أبي نجيح ، وإسناده صحيح ، قد صححه غير واحد من العلماء ، وقال الترمذني: هذا حديث حسن
صحيح . انظر شرح هذا الحديث مفصلاً في «جامع العلوم والحكم» ص ٢٢٥ - ٢٣٦ للحافظ ابن رجب الحنبلي
رحمه الله تعالى .

الصفات ، وهم رؤوس المجرة ، والأشعرية وافتتهم في الجبر، لكن نازعوهم نزاعاً لفظياً في إثبات الكسب والقدرة عليه ، وهم يرون أن هذه الأصول العقلية وهي العلم بما يجب للرب ويمنع عليه ، وما يجوز عليه من الأفعال، هي أعظم العلوم وأشرفها ، وأنهم بروزاً بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة، إما لكونه وكلها إلى استنباط الأمة ، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد، وإنما لكونه قال لهم في ذلك ما لم يبلغوه ولم يشغلهم بالأدلة لاستغلالهم بالجهاد .

وهذه هي الأصول العقلية التي يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم ، كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي وأبي الوليد الباقي تبعاً للقاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو وأتباعه ينافقون عبد الجبار وأمثاله ، كما ناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

وكل الأصول العقلية التي ابتدعوا هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع ، وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين ويقدمونها على الأصول الشرعية ، فإنهم في ذلك بمترفة ما يعظمه العباد والزهد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ، ويفضلونها على العبادات الشرعية، والعبادات الشرعية هي التي معهم من الإسلام ، وتلك كلها باطلة ، وإن كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا : نهاية الصوفي ابتداء الفقيه ، ونهاية الفقيه ابتداء الموله ، وكذلك صاحب «منازل السائرين» يذكر في كل باب ثلاثة درجات ، فالأولى وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر ، والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق ، والثالثة في الأغلب لا سيمها في التوحيدخالف ، والفناء والرجاء ونحو ذلك ، وهذا الذي ابتدعواه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل ، وكثير من العباد يفضل نوافلهم على أداء الفرائض ، وهذا كثير ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم تسلیماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .؟

[تمت والله الحمد]

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ٤٥	
أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيم أن تضرروا كتاب الله بعضه بعض ١٤٤	
أتي علي بزناقة فحرقهم بالنار ولو كنت لم أحرقهم لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعدد الله ٢١	
إذا سمعتم صياغ الديكة فسلو الله من فضله فإنها رأت شيطاناً ٢١	
إذا التقى المسلمين بسيفهم فالقاتل والمقتول في النار ٧٠	
إذا هم أحذكم ١١٦	
أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ٣٦	
أصدق كلمة قالها لبيد ١٢٨	
أفظنتك أنك ملاقيٌ ، قال : لا ، قال : فال يوم أنساك كما نسيتني ٨٩	
أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ٣٦	
الا إن في الجسد مضجة إذا اصلحت صلح لها سائر الجسد ٢٦	
الا انها ستكون فتنة .. كتاب الله ، فيه بما ما قبلكم وخبر ما بعدهم ٨٨	
أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .. ٨٨	
إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ويأقوام لا خلاق لهم ٦٣	
إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجه من بعض ٧٦ و ٧٣	
إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ١٣٣	

أو مسلم . . . [يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت . . .]	٣٨
الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله	٢٣
الإسلام علانية والإيمان بالقلب	٣٦ و ٣٨
الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله	٢٥
اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد	٤٨
تعرض الفتنة على القلوب كالحصير عوداً عوداً	١٤٢
ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم	٨٧
الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور لا يعلمها كثيرون من الناس	٩٣
خير القرون قرني الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم	١٥ و ٤٣
خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر	٢٤
رخص [ﷺ] في موضع أصبعين أو ثلاثة أو أربعة من الحرير	٨٠
فأخذته فذعنه حتى سال لعابه على يدي وأمرت أن أربطه إلى سارية	٥٩
قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم	٤٥ و ٤٩
كل مسکر حرام	١٠
الله أشد أذناً إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته	٨٧
ما أذن الله لشيء كاذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن	٨٧
من رأى منكم منكراً فليغيره بيده	١٤٢
من رأى في المنام فقد رأى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي	٦٢
من سأل القضاء واستعن عليه	٤٦
من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة	٨٠
ناقصات عقل ودين	٣١ و ٣٣
وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلاله	١٤٥
﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيمة ﴾	١٠٤ و ١٠٥
لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً	٤٣

لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنواقل حتى أحبه	٤٥
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٣٣
لا يقول أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت	١٤٣
يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه والأرض على ذه	١٠٤
يحرق أحدكم صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم	٢١
يطوي الله السموات يوم القيمة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أين الملوك أين الجبارون	١٠٥
يقبض الله الأرض يوم القيمة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض	١٠٥
أحاديث ذم الخوارج	١٩
حديث الشفاعة	٣٧
و ٢٥	
حديث المعراج	١١١
روى أنهم يكونون في ربضها - الجنة - يراهم الانس من حيث لا يرون الإنس	٥٧

* * *

الدليل العام

الفرقان بين الحق والباطل

- | | |
|----|---|
| ٣ | فصل في الفرقان بين الحق والباطل وأن ذلك مبين بالكتاب والسنة النبوية . |
| ٤ | الفرقان هو القرآن الكريم . |
| ٨ | الفروق بين الخالق والمخلوق . |
| ١٢ | كلام الله عز وجل يجمع بين المتماثلات ويفرق بين المختلفات . |
| ١٣ | حججة من لا يرى قتل الزنديق إذا أخفى زندقه . |
| ١٣ | التفاق على ثلاثة أوجه . |
| ١٤ | سنة الله تعالى في خلقه لا تتبدل ولا تختلف . |
| ١٥ | علوم المتقدمين وأعمالهم خير من علوم وأعمال المتأخرین . |
| ١٦ | تعريف الخوارج والرافضة والقدرة والمرجئة . |
| ١٧ | فصل تأدب السلف إزاء الكتاب والسنة فلم يعارضوهما بعقل او ذوق . |
| ٢٠ | الشيعة يكثرون فيهم الكذب بخلاف الخوارج . |
| ٢٣ | متى حدثت القدرة . |
| ٢٤ | متى وافقت القدرة الخوارج على تخليد العصاة وسلب الإيمان عنهم . |
| ٢٥ | رأي المرجئة في معنى الإيمان . |
| ٢٧ | المرجئة عند أبي حنيفة والاستثناء عندهم . |
| ٢٩ | تحقيق تفسير الاستثناء عند السلف . |
| ٣١ | معنى الإيمان عند بعض الفرق . |
| ٣٢ | ليس للخوارج كتاب مصنف . |
| ٣٣ | الإيمان يزيد وينقص . |

- ٣٥ مذهب أهل السنة ان الإيمان يتضليل من وجهين ، وأدلة ذلك .
- ٣٧ أقوال المرجئة ثلاثة ، وما يلزم هذه الأقوال .
- ٣٩ إذا اختلف الصحابة والتابعون على قولين فهل يجوز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ؟
- ٤٠ أساس التفرق البعد عن الاعتصام بالقرآن .
- ٤٢ فصل : الفرقان بين الحق والباطل بالمتابعة لله ورسوله وعدمهها .
- ٤٢ حكم من اخطأ بعد اجتهاده في طلب الحق .
- ٤٤ هل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ؟
- ٤٥ الالهامات الصحيحة تتفق مع الحق من الكتاب والسنة ، وأدلتها .
- ٤٧ طاعة الله عز وجل بالاتباع يحصل بها اليقين وطمأنينة النفس .
- ٤٩ واجب أهل الإلهام اتباع ما أنزل الله تعالى كعمر رضي الله عنه .
- ٥٠ طرق العلم ثلاثة : الحس ، والنظر ، والخبر ..
- ٥٢ الجن مكلفوں كالإنس ، وحكم مؤمنهم وكافرهم في الآخرة .
- ٥٣ تفسير «استمتع ببعضنا ببعض» وامثلة الاستماع الجن والإنس .
- ٥٥ الفلسفه لا يعرفون الجن والشياطين ، والحكمة من خلق الشهوة والغضب .
- ٥٦ الجن مكلفوں بتکلیف الانس ، ومحمد ﷺ مرسل الى الثقلین .
- ٥٨ القول على الخوارق والمعجزات .
- ٦١ حوادث للمؤلف رحمة الله تعالى مع الجن .
- ٦٢ الجن قد يظهر بصورة الخضر أو موسى أو عيسى أو المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام .
- ٦٢ الشيطان هو الذي أتى الى الحواريين وكلمهم ووصاهم بعد رفع المسيح عليه السلام .

- قد يسلم خلق على أيدي الظلمة . ٦٣
- مذهب المعتزلة خير من مذهب الرافضة والخوارج . ٦٤
- الأشعرية ردوا من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ما انتفع به ٦٥
خلق كثير .
- المعتزلة أقرب إلى اليهود ، والصوفية أقرب إلى النصارى . ٦٦
- فصل : التوراة والإنجيل الصحيحة فيهما الهدى والنور . ٦٧
- سبب أمر الصحابة بأن لا يكتب مع القرآن أسماء السور ولا التخميص ٦٩
والتفسير .
- النصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح عليه السلام . ٧٠
- فصل المواضع التي ذم الله فيها الذين لا يتبعون الا الظن . ٧٢
- هل الفقه ظنون ، ورأي الرازى . ٧٤
- رأى المؤلف رحمة الله تعالى في أن الفقه هل هو ظنون . ٧٧
- فصل : كيف يبحث الفقيه . ٧٩
- المجتهد يؤجر ، وخطئه مغفور له . ٨١
- تناقض المجبرة في فهم بعض الصفات لعدم التزام النصوص . ٨٣
- الرد على قول الرازى : لا يجوز ان يتكلم الله تعالى بكلام ولا يعني به شيئاً . ٨٤
- فصل في صفات الله الاختيارية وموقف المتكلمين منها . ٨٦
- أراء في صفات الله الاختيارية وتعلقاتها . ٨٨
- فصل في جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلal . ٨٩
- الأدلة العقلية والنقلية وأقواها وأفضلها . ٩٠
- فصل : أهل الضلال يتبعون المتشابه و يجعلون أهواءهم محكمة . ٩٣
- المحكم والمتشابه أمر نسبي بين الناس . ٩٣
- ما قاله الله عز وجل ورسوله ﷺ هو الأصل . ٩٤
- خطأ الفلسفه في إثبات الواجب بالممکن . ٩٦

- ٩٧ كل حادث لا بد له من محدث عن جميع الأمم الا السوفسطائية .
- ٩٩ أول من قال في الإسلام ان القديم جسم ، وأول من اظهر في الإسلام نفي الجسم .
- ٩٩ اختلاف الناس في قيم الحوادث بذات الله تعالى .
- ١٠٢ الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن .
- ١٠٣ أصل عبادة الله معرفة ما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسle .
- ١٠٣ عظمة الله عز وجل أكبر مما يتصور الناس .
- ١٠٦ الحكمة في تثنية قصة فرعون في القرآن الكريم .
- ١٠٦ الحكمة في تثنية قصة فرعون في القرآن الكريم .
- ١٠٦ مناقشة الذين نزهوا الله تعالى ، وقالوا : إنه ليس بجسم .
- ١٠٩ اختلاف المتقدمين في كلام الله تعالى وتوقف المتأخرین .
- ١١٠ الله تبارك وتعالى يجزي الإنسان بجنس عمله .
- ١١١ الله جل جلاله فوق العالم كما أخبر موسى عليه السلام .
- ١١٣ أول من أظهر في الإسلام التعطيل : الجعد بن درهم .
- ١١٤ سبب سلط الكفار على المسلمين ظهور البدع والفجور المخالف لدين الله .
- ١١٨ مقالات المتصوفة في الله عز وجل وفي شريعته .
- ١٢٣ المتصوفة يفسرون القرآن الكريم بما يخالف المعقول واللغة .
- ١٢٥ الجهمية ينكرون وجود الإله وهم أضل من الحلولية والاتحادية .
- ١٢٧ الفناء يعبر به عن ثلاثة أمور .
- ١٢٨ سؤال معجز لبعض شيوخ الجهمية .
- ١٢٩ تحقيق معنى الإله ، ولا يصلح غير الله تعالى للإلهية .
- ١٣١ فصل من أعظم أسباب ضلال المتكلمين مشاركتهم للفلاسفة وتلقיהם عنهم .
- ١٣٢ الجهمية يرفضون القرآن والتفسير والنقد ويتعلقون بالتنجيم والطب .

- ١٣٢ فصل أول التفرق والابداع في الاسلام بعد مقتل عثمان رضي الله عنه .
- ١٣٢ الخوارج يعظمون القرآن الكريم والشيعة يعظمون الإمام وكلاهما يخرج عن السنة .
- ١٣٢ فصل القدرية أنكروا بعض صفات الله تعالى وانقسموا الى معزلة وجبرية .
- ١٣٦ الجبرية مشركون أو منافقون يوالون غير المسلمين ضد المسلمين .
- ١٣٩ المشركون يجعلون ما يقع في قلوبهم أوامر الله عز وجل .
- ١٤٠ ليس للشيطان سلطان الا على الغاوين المكذبين .
- ١٤٠ الضالون لا يفرقون بين المعجزات والكرامات وخوارق الشياطين .
- ١٤٣ قوله تعالى ﴿ لَا يسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ إثبات للقدرة والمشيئة وليس نفياً للحكمة .
- ١٤٥ المبتدعة يقدمون معقولهم على الوحي ، ويرون أنهم فاقوا الصحابة في المعارف .

* * *